

نجيب محفوظ

مكتبة مصر



الأمي
والأولاد



اللَّهُ وَالْكَافِرُ

نخب محفوظ

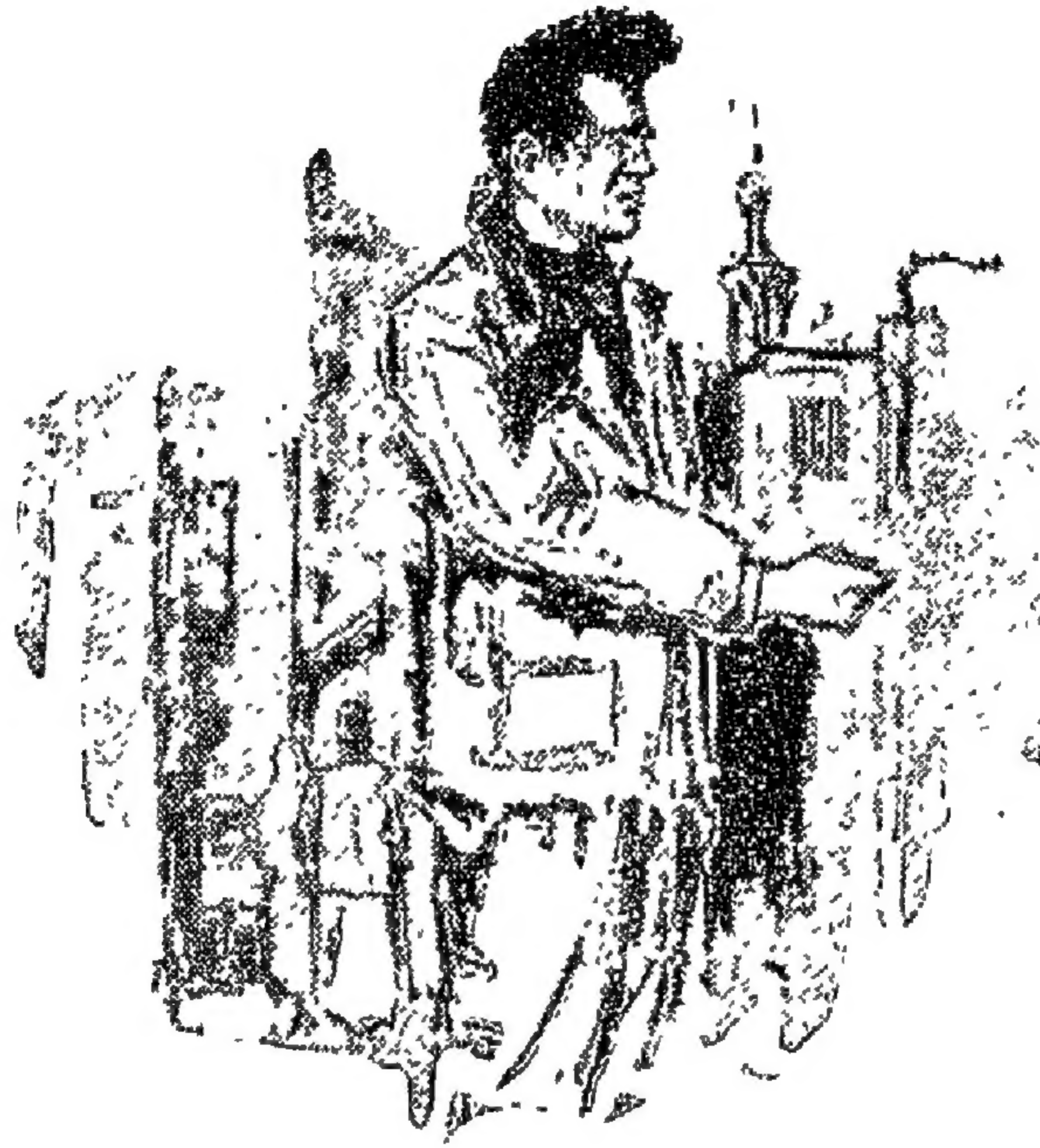
اللحن والمكاب

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "البحالة"

دار مصر للطباعة
٢٧ شارع مصر في البحالة



الفصل الأول



مرة أخرى يتنفس نسمة الحرية ، ولكن في الجو غبار خائف
وحر لا يطاق . وفي انتظاره وجد بدلته الزرقاء وحذاءه المطاط ،
وسواهما لم يجد في انتظاره أحدا . ها هي الدنيا تعود ،
وها هو باب السجن الأصم يتعد منطويا على الأسرار اليائسة .
هذه الطرقات المثقلة بالشمس ، وهذه السيارات المجنونة ،

والعابرون والجالسون ، والبيوت والدكاكين ، ولا شفة تفتقر
عن ابتسامة . وهو واحد ، خسر الكثير ، حتى الأعوام الغالية
خسر منها أربعة غدرا ، وسيقف عما قريب أمام الجميع متحديا .
آن للغضب أن ينفجر وأن يحرق ، وللخونة أن يأسوا حتى
الموت ، وللخيانة أن تكفر عن سحنتها الشائنة . نبوية عlish ،
كيف اقلب الاسمان اسما واحدا ؟ ، أتما تعملان لهذا اليوم
ألف حساب ، وقديما ظننتما أن باب السجن لن يفتح ، ولعلكما
تترقبان في حذر ، ولن أقع في الفخ ، ولكني سأقضي في الوقت
المناسب كالقدر . وسناء اذا خطرت في النفس انجاب عنها الحر
والغبار والبغضاء والكدر . وسطع الحنان فيها كالنقاء غب
المطر . ماذا تعرف الصغيرة عن أيها ؟ .. لا شيء ، كالطريف
والمارة والجو المنصهر . طوال أربعة أعوام لم تغب عن باله ،
وتدرجت في النمو وهي صورة غامضة ، فهل يسمح الحظ
بمكان طيب يصلح لتبادل الحب ، ينعم في ظله بالسرور المظفر ،
والخيانة ذكرى كريهة بائدة ؟ . استعن بكل ما أوتيت من دهاء ،
ولتكن ضربتك قوية كصبرك الطويل وراء الجدران . جاءكم
من يغوص في الماء كالسمكة ويطير في الهواء كالصقر ويتسلق
الجدران كالقار وينفذ من الأبواب كالرصاص . ترى بأي وجه
يلقاك ؟ ، كيف تتلاقى العينان ؟ ، ألسيت يا عlish كيف كنت
تتمسح في ساقى الكلب ؟ ، ألم أعلمك الوقوف على قدمين ؟ ،
ومن الذي جعل من جامع الأعقاب رجلا ؟ ، ولم تنس وحدك

يا عlish ولكنها نسيت أيضا ، تلك المرأة النابتة في طينة تنة
اسمها الحيانة . ومن خلال هذا الكدر المنتشر لا يسم إلا
وجهك يا سناء ، وعما قريب سأخبر مدى حظى من لقيالك ،
عندما أقطع هذا الشارع ذا البواكى العابسة ، طريق الملاهى
البائدة ، الصاعد الى غير رفعة ، أشهد أنى أكرهك . الحمارات
أغلقت أبوابها ولم يبق إلا الحوارى التى تحاك فيها المؤامرات ،
والقدم تعبر من آن لآن تقرة مستقرة فى الطوار كالمكيدة ،
وضجيج عجلات الترام يكركر كالسب ، ونداءات شتى تختلط
كأنما تنبعث من تهايات الخضر ، أشهد أنى أكرهك . ونوافذ
البيوت المغرية حتى وهى خالية ، والجدران المتجهمة المقشفة ،
وهذه العطفة الغريبة عطفة الصيرفى ، الذكرى المظلمة ، حيث
سرق السارق ، وفى غمضة عين انطوى ، الويل للخونة . فى
هذه العطفة ذاتها زحف الحصار كالشعبان ليطوق الغافل ، وقبل
ذلك بعام خرجت من العطفة ذاتها تحمل دقيق العيد والأخرى
تتقدمك حاملة سناء فى قماطها ، تلك الأيام الرائعة التى
لا يدري أحد مدى صدقها ، فانطبعت آثار العيد والحب
والأبوة والجريمة فوق أديم واحد . وتراءت الجوامع الشاهقة ،
وطارت رأس القلعة فى السماء الصافية ، وانساب الطريق فى
الميدان ، وتجلت خضرة البستان تحت الأشعة الحامية ، وهبت
نسمة جافة رغم القيظ منعشة ، ميدان القلعة بكل ذكرياته
المحرقة . وكان على الوجه الذى لفحته الشمس أن ينبسط

وأن يصب ماءً بارداً على جوفه المستعر كي يبدو مسالماً أليفاً
فيمثل دوره المرسوم كما ينبغي . واجتاز وسط الميدان متجهاً
نحو سكة الامام . ومضى فيها يقترب من البيت ذي الأدوار
الثلاثة في نهايتها وعلى مفرق عطفتين جانبيتين يتفرع اليهما
الطريق الأول . في هذه الزورة البريئة سيكشف العدو عما
أعده للقاء ، فادرس طريقك ومواقعه ، وهذه الدكاكين التي
تشرئب منها الرءوس كالفيران المتوجسة . وجاءه صوت من
وراء يقول :

— سعيد مهران ! .. ألف نهار أبيض ..

توقف عن المسير حتى أدركه الرجل فتصافحا وهما يغطيان
على انفعالاتهما الحقيقية بابتسامة باهتة . اذن بات للوغد
أعوان ، وسيرى قريباً ما وراء هذا الاستقبال ، ولعلك تنظر
من الشيش مستخفياً كالنساء يا عlish .

— أشكرك يا معلم بياظة ..

ولحق بهما كثيرون من الدكاكين على الجانبين ، وارتفعت
حرارة التهاني ، وسرعان ما وجد نفسه مطوقاً من جميع الجهات
بحشد من أصدقاء غريمه ولا شك ، واستبقت الحناجر قائلة :

— الحمد لله على سلامتك ..

— مبارك للأصدقاء والأحباب ..

— قلنا من القلوب سيفرج عنه في عيد الثورة ..

فقال وهو يتفحصهم بعينه اللوزيتين العسليتين :

— الشكر لله ولكم ..
فربت بياظة على منكبه قائلاً :
— تعال الى الدكان لنشرب الشربات !
فقال بهدوء :
— فيما بعد ، عند العودة ..
— العودة ؟ !
وصاح أحد الرجال موجهها حنجرتة الى الدور الثانى من
البيت :
— يا معلم عlish ! .. يا معلم عlish انزل هنىء سعيد
مهران !
لا داعى للتحذير يا خنفساء . انى قادم فى ضوء النهار .
وأعلم أنكم تترقبون . وعاد بياظة يتساءل :
— العودة من أين ؟
— لدى حساب يجب أن أسويه ..
فتساءل بوجه ممتعض :
— مع من ؟
— أنسيت أننى أب ؟ .. وأن ابنتى الصغيرة عند عlish ؟
— نعم ، ولكل خلاف حل فى الشرع ..
وقال آخر :
— والتفاهم خير ..
وثالث قال بنبرة المسالم :

— سعيد أنت قادم من السجن والعقل من اتمظ !
فقال وهو يدارى حنقه المختنق :

— من قال انى جئت لغير التفاهم ؟ !
وفتحت نافذة من الدور الثانى وأطل منها عيش فارتفعت
الرءوس اليه فى توتر . وقبل أن تبدر كلمة خرج من باب البيت
رجل طويل عريض ، فى جلباب مقلم ، يتعمل حذاء حكوميا
فعرف سعيد فيه المخبر حسب الله ، وسرعان ما تظاهر بالدهش
وقال منفعلا :

— ماذا دعا الى اقلاقك وما جئت الا للتفاهم ؟
فمضى نحوه مسرعا وتحسسه مفتشا عما يريب فى صدره
أو جيوبه ، فعل ذلك بمهارة وخفة ودربة وهو يقول :

— اسكت يا بن الثعلب ، ماذا تريد ؟
— جئت للتفاهم على مستقبل ابنتى ..

— أنت تعرف التفاهم !
— نعم ، من أجل ابنتى ..
— عندك المحكمة ..

— سألجأ اليها عند اليأس !
وصاح عيش من أعلى :
— دعه يدخل ، تفضلوا ..

اجمعهم حولك يا جبان . انما جئت أجس حصونك . وعند
الأجل لا ينفع مخبر ولا جدار . ودخلوا حجرة الاستقبال

فتفرقوا فوق الكنب والمقاعد . وفتحت النوافذ فاندفع الضوء
والذباب ، وتبدت في البساط السماوى قط سود من أثر
حروق . وحمل عيش من صورة كبيرة في الجدار معتمدا
بقبضتيه عصا غليظة . أما المخبر فقد جلس الى جانب سعيد
وراح يعث بحبات مسبحة . ودخل عيش صدره في جلباب
فضفاض منتفخ حول جسم برميلي ، رافعا وجهها مستديرا ممتلىء
اللغد تحت ذقن مربعة وأقف غليظ محطم العرنيين ، صافح
سعيد متظاهرا بالشجاعة وقال :

— حمدا لله على سلامتك !

وسرعان ما تأزم الجو بالصمت وتبودلت نظرات قلقة حتى
عاد عيش يقول وكأنما يرغب في فتح صفحة جديدة .:

— ما فات فات ، وكل ما حصل يقع كل يوم ، وقد تحدث
أمر مؤسفة وتنهار صداقات قديمة ، ولكن لا يعيب الرجل
الا العيب !

بدا سعيد وهو يتابعه بعينه البراقتين وجسمه النحيل
القوى كأنه نمر يتربص بفيل ، ولم يسعه الا أن يردد قوله :
— لا يعيب الرجل الا العيب ..

وحديثه أعين كثيرة عقب ترديده ، وكفت يد المخبر عن
العث بحبات المسبحة فأدرك هو ما يجول بخاطرهم فقال
مستدركا :

— أوافقك على ما قلت حرفا بحرف ..

فقال المخبر بضجر :

— ادخلوا فى الموضوع واعفونا من اللف ..

فتساءل سعيد بسخرية خفية :

— من أى ناحية ؟

— ناحية واحدة هى التى يجوز الكلام فيها وهى ابنتك !

وزوجتى وأموالى يا جرب الكلاب ! . الويل .. الويل .
أريد أن ألقى نظرة من عينيك . كى أحترم من الآن فصاعدا
الخنفساء والعقرب والدودة . سحقا لمن يطرب لأنعام امرأة .
لكنه هز رأسه بالايجاب ، فقال أحد ماسحى الجوخ :

— بنتك فى الحفظ والصون ، مع أمها ، وشرعا يجب أن
تبقى مع أمها بنت ستة أعوام ، وإن شئت أزورك بها كل
أسبوع ..

فرفع سعيد صوته متعمدا لسمع من فى الخارج :

— شرعا هى حق لى لشتى الملابس والظروف ..

فتساءل عlish فى غلظة :

— ماذا تقصد ؟

ولكن المخبر عاجله قائلا :

— لن يجرىء من الكلام الا وجع الدماغ ..

فقال عlish بيقين :

— لم أرتكب جريمة ولكنها القسمة والنصيب ، والواجب

أيضا ، واجب المروءة دفعنى الى ما فعلت ، ومن أجل البنت الصغيرة أيضا !

واجب المروءة يا ابن الأفعى ! . الغدر والخيانة المزدوجة .
المطرقة والفأس وجبل المشنقة . ولكن ما شكل سناء الآن ؟ .
وقال بهدوء ما استطاع :

— لم أتركها في حاجة ، كانت لديها أموالى ، أموال طائلة ..

فهتف المخبر :

— تقصد مسروقاتك ؟ ! تلك التى أنكرتها في المحكمة !
— ليكن ، ولكن أين ذهبت ؟ !

فصاح عlish :

— ولا ملهم ! ، صدقونى يا رجال ، كانت الحال لا يسر
بها عدو ولا حبيب ، وحققمت بالواجب ..

فتساءل سعيد فى تحد :

— خبرنى كيف أمكنك أن تعيش فى سعة وأن تنفق
على الآخرين ؟

فصاح عlish محتدا :

— هل أنت ربنا حتى تحاسبنى ؟

وقال رجل من ماسحى الجوخ :

— اخز الشيطان يا سعيد ..

وقال المخبر :

— أنا عارفك وفاهمك ، أنا خير من يقرأ داخل رأسك ،
ولكنك ستهلك نفسك ، لا تخرج عن موضوع البنت فهذا
خير لك ..

فترجع سعيد باسمه وهو يخفى عينيه في الأرض وقال
باستسلام :

— بالحق نطقت يا حضرة المخبر ..

— أنا عارفك وفاهمك ولكنني سأماشيك احتراماً لهؤلاء
الرجال ، هاتوا البنت ، أليس الأفضل أن نعرف رأيها أولاً ؟
— كيف يا حضرة المخبر ؟

— يا سعيد أنا فاهمك ، أنت لا تريد البنت ، ولا تستطيع
أن تأويها ، ولن تجد لنفسك مأوى إلا بعد الجهد ، ولكن من
العدل والرحمة أن تراها ، هاتوا البنت ..

بل هاتوا أمها . كم أرغب أن تلتقي العينان . كي أرى سرا
من أسرار الجحيم . الفأس والمطرقة . وقام عيش ليحيى بها .
وعندما ترامى وقع الأقدام القادمة خفق قلب سعيد خفقة
موجعة وتطلع الى الباب وهو يعض على باطن شفتيه . مسح
تطلع شيق وحنان جارف جميع عواطف الحنق . وظهرت البنت
بعينين داهشتين بين يدي الرجل ، ظهرت بعد انتظار طال ألف
سنة . وتبدت في فستان أبيض أنيق وشبشب أبيض كشف عن
أصابع قدميها المخضوبتين . وتطلعت بوجه أسمر وشعر أسود
مسبب فوق الجبين فالتهمتها روحه . وجعلت قلب عينيها في

الوجوه بغرابة ، وفي وجهه خاصة باستنكار لشدة تحديفه
ولشعورها بأنها تدفع نحوه ، وإذا بها تفرمل قدميها في البساط
وتميل بجسمها الى الوراء . لم ينزع منها عينيه ولكن قلبه
انكسر ، انكسر حتى لم يبق فيه الا شعور بالضيق . كأنها
ليست بابنته . رغم العينين اللوزيتين والوجه المستطيل والأنف
الأقنى الطويل . ونداء الدم والروح ما شأنه ؟ . أم هو الآخر
قد خان وغدر ؟ . وكيف له رغم ذلك كله بمقاومة هذه الرغبة
الجامحة في ضمها الى صدره حتى الفناء ؟ .

وقال المخبر بضجر ودون اكتراث :

— أبوك يا شاطرة !

وقال عlish بوجه لا يبين عن شيء :

— سلمى على بابا ...

كالفأرة ! . مم تخاف ! . ألا تدري كم يحبها ! . ومد
نحوها يده ولكنه بدل الكلام شرق فازدرد ريقه . وابتسم في
رقة واغراء . وقالت سناء لا . وتحركت لتتسلل راجعة لولا
الرجل وراءها . وهتفت « ماما » فدفعها الرجل برقة وهو
يقول :

— سلمى على بابا ..

وتجلت في الأعين نظرات اهتمام ، وشماتة . وآمن سعيد
بأن جلد السجن ليس بالقسوة التي كان يظنها . وقال متوسلا :
— تعالى يا سناء ..

ولم يعد يحتل رفضها فقام نصف قومة ومال نحوها
فهتفت :

— لا ..

— أنا بابا .

فرفعت عينيها الى عيش سدره مستغربة فقال سعيد
باصرار :

— أنا بابا ، أنا ، تعالى ..

فتأبت واشتد ميلها الى الورا . جذبها نحوه بشيء من
القوة . صرخت . ضمها الى صدره فدافعه باكية . ومال نحوها
ليلثم — رغم هزيعته ويأسه — فهاها أو خدها ولكن شفتيه لم
تلتما الا ساعدها المتحرك في عصبية غير راحمة .

— أنا بابا ، لا تخافى ، أنا بابا ..

وأفعمت رائحة شعرها روحه بذكرى أمها فتقبضت
أساريه . وازدادت البنت مدافعة وبكاء حتى قال المخبر :
— على مهلك ، البنت لا تعرفك ..

فتركها تجرى يائسا ، ثم اعتدل في جلسته وهو يقول
بغضب :

— سوف آخذها ..

ومضت هنيهة صمت قبل أن يقول له بياظة :

— هدىء نفسك أولا ..

فقال باصرار :

— لا بد أن تعود الىّ ..

فقال المخبر بحدة :

— دع القرار للقاضى ..

ثم التفت نحو عlish متسائلا :

— نعم ؟

فقال عlish :

— الأمر لا يخصنى فى شىء ولكن أمها لن تفرط فيها

الا بالشرع ..

فقال المخبر :

— كما قلت أول الأمر ، كلمة واحدة لا ثانى لها ، وهى

المحكمة !

وشعر سعيد بأنه لو تمادى فى الغضب لاتفجر جنونه
فتسلط على مشاعره بقوة غير طبيعية مذكرا نفسه بأشياء كاد
ينساها ، وقال بهدوء نسبى :

— نعم المحكمة !

فقال بياظة :

— والبنت كما ترى تعيش فى رعاية وراحة ..

وقال المخبر فى لهجة لم تخل من سخرية :

— ابحث أولا عن طريق مستقيم تأكل منه لقمتك ..

ونغم هذا بدا أنه يسيطر على نفسه أكثر فأكثر حتى قال :

— نعم ، كل هذا حق ، ولا داعى للأسف من ناحيتى ،

وسأعاود التفكير في الأمر كله ، ولا شك أنه خير أن أنسى
الماضى وأن أبحث عن عمل حتى أهيبء للبننت مكانا طيبا في
الوقت المناسب .

وساد الصمت دهشة فتبدلت نظرات مصدقة وغير
مصدقة ، وكوّر المخبر قبضته على المسبحة متسائلا :

— انتهينا ؟

فقال سعيد :

— نعم ، ولكنى أريد كتبي ..

— كتبك ! ؟

— نعم ..

فصاح عlish :

— ضاع أكثرها بيد سناء وسأحضر لك ما بقى منها ..

وغاب الرجل برهة ثم عاد حاملا على يديه عامودا متوسطا
من الكتب ، فوضعه وسط الحجرة . وقام سعيد الى المجموعة
فتناول كتابا اثر آخر وهو يقول بأسف :

— ضاع أكثرها حقا ..

وضحك المخبر متسائلا :

— من أين لك هذا العلم ؟

ثم وهو ينهض معلنا انتهاء المقابلة :

— أكنت تسرق فيما تسرق الكتب ؟

وابتسم الجميع ولكن سعيد أقبل يحمل الكتب دون أن

يبتسم ..

الفصل الثاني

نظر الى الباب المفتوح ، المفتوح دائما كما عهدته من أقصى
الزمن ، وهو يقترب منه ضاربا في طريق الجبل . مشوى ذكريات
ورحمة في حى الدراسة القائم بين ذراعى المقطم . الأرض أطفال
ورمال ودواب وهو من التعب والافتعال يلهث . وجرت عيناه
وراء الصغيرات من البنات بلا ملل . وما أكثر الكسالى
المستلقين في ظل الجبل بعيدا عن الشمس المائلة . ووقف على
عتبة الباب المفتوح قليلا ، ينظر ويتذكر ، ترى متى عبر هذه
العتبة آخر مرة ؟ . يا له من مسكن بسيط كالمساكن في عهد
آدم . حوش كبير غير مستقوف في ركنه الأيسر نخلة عالية
مقوسة الهامة ، والى اليمين من دهليز المدخل باب حجرة وحيدة
مفتوح . لا باب مغلق في هذا المسكن العجيب . وخفق قلبه
فأرجعه الى عهد بعيد طرى ، طفولة وأحلام وحنان أب وأخيلة
سماوية . المهتزون بالأناشيد يملئون الحوش والله في أعماق
الصدور يتردد . انظر واسمع وتعلم وفتح قلبك .. هكذا كان
يقول الأب . وفرحة كالجنة بعثها الحلم والايمان ، وفرحة بالغناء
والشاي الأخضر أيضا . ترى كيف حالك يا شيخ على يا جنيدى
يا سيد الأخياء ؟ . وترامى اليه صوت من داخل الحجرة وهو

يختتم الصلاة فابتسم سعيد ومرق من باب الحجرة حاملا كتبه .
هاك الشيخ متربعا على سجادة الصلاة غارقا في التستمة . وهذه
هى الحجرة القديمة لم يكد يتغير منها شيء . الحصر جددت
شكرا للمريدين ، وما زال الفراش البسيط لصق الجدار الغربى ،
وشعاع الشمس المائلة ينسكب من كوة عند قدميه ، أما بقية
الجدران فقد اختفى أسفلها وراء أرفف المجلدات ، ورائحة
البخور مستقرة كأنما لم تتبخر منذ عشرات الأعوام . تخفف من
حملة واقترب من الشيخ قائلا :

— السلام عليكم يا سيدى ومولاي !

أتم الشيخ تمتمته ثم رفع رأسه عن وجه نحيل فائض
الحياة بين الاشرار تحف به لحية بيضاء كالهالة . وعلى الرأس
طاقة بيضاء منغرزة في سوائف كثة فضية . حدجه بعين رأت
الدنيا ثمانين عاما ورأت الآخرة . عين لم تفقد جاذبيتها ونفاذها
وسحرها فلم يملك سعيد من أن يهوى على يده فيقبلها وهو
يدفع دمة باطنية استقطرها من جو الذكريات والأب والأمل
والسما في الماضي البعيد .

بـ وعليكم السلام ورحمة الله ..

هذا صوت زمان ! . ترى كيف كان صوت أبيه ؟ . كأنما
يتذكر صوت أبيه بعينه فيرى وجهه وشفتيه وهما يتحركان
ولكن الصوت انتهى . وأين المريدون ، أين أهل الذكر ،

يا سيدى محمد على بابك ! . وترجع أمامه على الحصيرة وهو يقول :

— أجلس دون استئذان لأنى أذكر أنك تحب ذلك !
شعر بأن الشيخ ابتسم من دون أن ترتسم على شفثيه
الغارقتين فى البياض ابتسامة . ترى هل تذكره ؟ . وقال :
— لا تؤاخذنى ، لا مكان لى فى الدنيا الا بيتك ..
ترك الشيخ رأسه يهوى فى صدره وهو يقول بصوت
هامس :

— أنت تقصد الجدران لا القلب ..
فتنهد سعيد ، وبدا لحظة كأنه لم يفهم شيئاً ، ثم قال
بصراحة ودون مبالاة :

— خرجت اليوم فقط من السجن ..
فأغمض الشيخ عينيه متسائلاً :
— السجن !

— نعم ، أنت لم ترى منذ أكثر من عشرة أعوام ، وفى
تلك الفترة من الزمن حدثت أمور غريبة ، ولعلك سمعت عنها
من بعض مريدك الذين يعرفوننى ...
— لأننى أسمع كثيراً لا أكاد أسمع شيئاً ..
— على أى حال لا أحب أن ألقاك متنكراً ، لذلك أقول لك
أننى خرجت اليوم فقط من السجن ..
فهز رأسه فى ببطء وهو يفتح عينيه قائلاً فيما يشبه الأسى :

- أنت لم تخرج من السجن ..
- فابتسم سعيد . كلمات العهد القديم تتردد من جديد .
حيث لكل لفظ معنى غير معناه . وقال :
- يا مولاي ، كل سجن يهون الا سجن الحكومة ..
فرنا اليه بعين رائقة ثم تمتم :
- يقول ان كل سجن يهون الا سجن الحكومة ..
فابتسم سعيد مرة أخرى . كاد يأس من التلاقى . ثم
تساءل في حرارة :
- هل تذكرتنى ؟
فغمغم الشيخ دون مبالاة :
- ولك الساعة التى أنت فيها !
ومع أنه لم يشك فى أنه تذكره الا أنه تساءل مستزيذا من
الثقة :
- وأبى عم مهران الله يرحمه ؟
— الله يرحمنا ..
- ما أجمل الأيام الماضية !
— قل ذلك ان استطعت عن الساعة ..
- ولكن ..
— الله يرحمنا !
- قلت انى خارج اليوم من السجن ..
فهز رأسه فى طرب مفاجيء قائلا :

— وقال وهو على الخازوق باسم : جرت مشيئته بأن
تلقاه هكذا ..

أبى كان يفهمك . كم أعرضت عنى حتى خلتك تطردنى
طردا . ورجعت بقدمى الى جو البخور والقلق . هكذا يفعل
موحش القلب الذى لا بيت له وقال :

— مولاي ، قصدتك فى ساعة أنكرتنى فيها ابنتى ..
فقال الشيخ متأوها :

— يضع سره فى أصغر خلقه !

فقال جادا :

— قلت لنفسى اذا كان الله قد مد له فى العمر فتأجد
الباب مفتوحا ..

فقال الشيخ بهدوء :

— وباب السماء كيف وجدته ؟

— لكنى لا أجد مكانا فى الأرض ، وابنتى أنكرتنى ...
— ما أشبهها بك ..

— كيف يا مولاي ؟

— أنت طالب بيت لا جواب ..

فأسند رأسه المفلفل الى يده المعروقة الدكناء وقال :

— كان أبى يقصدك عند الكرب ، وجدت نفسى ..

فقاطعه بهدوء لا يخرج عنه :

— أنت تريد بيتا ليس الا ..

تضاعف شعوره بأنه يعرفه ، وقلق دونما سبب مفهوم ،
وقال :

— ليس بيتا فحسب ، أكثر من ذلك ، أود أن أقول اللهم
ارض عني ..

فقال الشيخ كالترنم :

— قالت المرأة السماوية : « أما تستحي أن تطلب رضا من
لست عنه براض ؟ ! » .

وضج الخلاء في الخارج بنهيق حمار ختم بحشرجه
كالبكاء ، وغنى صوت لا حلاوة فيه « البخت والقسمة فين » .
كما ضبطه أبوه وهو يغنى « حزر فزر » فلكمه برحمة وقال له
« أهذه أغنية مناسبة ونحن في الطريق الى الشيخ المبارك ؟ »
وترنج الأب وسط الذكر ، غابت عيناه ، بح صوته ، تصبب
عرقا . وجلس هو عند النخلة يشاهد صفى المريدين تحت ضوء
الفانوس ويقضم دومة وينعم بسعادة عجيبة . وكان ذلك سابقا
لنزول أول قطرة حارقة من شراب الحب . وأغض الشيخ
عينيه فكأنه نام . وألف هو المنظر والجو حتى البخور لم يعد
يشمه . وطرأت فكرة بأن العادة أساس الكسل والملل والموت .
وهي المسئولة عما عانى من خيانة وجحود وضياع جهد العمر
سدى . وتساءل ليوقظه :

— ألا تزال تحيا الأذكار هنا ؟

فلم يجبه . وساوره القلق فعاد يسأل :

— ألا ترحب بى ؟

ففتح الشيخ عينيه قائلا :

— ضعف الطالب والمطلوب ..

— لكنك صاحب البيت !

فقال فى مرح طارئ :

— صاحب البيت يرحب بك ، وهو يرحب بكل مخلوق ،

وبكل شىء ..

فابتسم سعيد متشجعاً ، فاستدرك الشيخ قائلا :

— أما أنا فصاحب لا شىء ..

وكان ضوء الشمس المرسوم على الحصيرة قد انسحب

الى الجدار فقال سعيد :

— على أى حال فهذا البيت بيتى ، كما كان بيت أبى ،

وبيت كل قاصد ، وأنت يا مولاي جدير بكل شكر ..

فقال الشيخ :

— اللهم انك تعلم عجزى عن مواضع شكرك فاشكر نفسك

عنى ، هكذا قال بعض الشاكرين !

فقال سعيد برجاء :

— انى فى حاجة الى كلمة طيبة ..

فقال فى عتاب حلیم :

— لا تكذب ..

وأخنى رأسه حتى انتشرت لحيته على صدره وراح
مستغرقا . انتظر سعيد صابرا ، ثم ترحل الى الورااء ليسند
ظهره الى رف من رفوف الكتب ، وجعل يتأمل الشيخ الجميل .
ولما طال انتظاره سأله :

— هل من خدمة أؤديها لك ؟

فلم يعن بالالتفات الى قوله ، ومضى زمن صامت وعينه
سعيد تتابع طابورا من النمل يزحف بخفة بين ثنيات الحصيرة ،
واذا بالشيخ يقول :

— خذ مصحفنا واقرأ ..

فارتبك سعيد قليلا ثم قال بلهجة المعتذر :

— غادرت السجن اليوم ولم أتوضأ ..

— تَوْضُحاً وَاقْرَأْ ..

فقال بلهجة جديدة شاكية :

— أنكرتني ابنتي ، وجفلت مني كآني شيطان ، ومن قبلها

خاتنتی أمها !

فعاد الشيخ يقول برقة :

— تَوْضُحاً وَاقْرَأْ ..

— خائنتی مع حقیر من أتباعی ، تلمیذ کان یقف بین یدی۔

كالكلب ، فطلبت الطلاق محتجة بسجني ، ثم تزوجت منه .

— تَوْضُحاً وَاقْرَأْ ..



فقال باصرار :

— ومالى ، النقود والحلى ، استولى عليها ، وبها صار
معلما قد الدنيا ، وجميع أنزال العطفة أصبحوا من رجاله ..
— توضأ واقرأ ..

بعبوس وقد اتفتحت عروق جبينه :

— لم يقبض علىّ بتدبير البوليس ، كلا ، كنت كعادتى
واثقا من النجاة ، الكلب وشى بى ، بالاتفاق معها وشى بى ، ثم
تتابع المصائب حتى أنكرتنى ابنتى ..

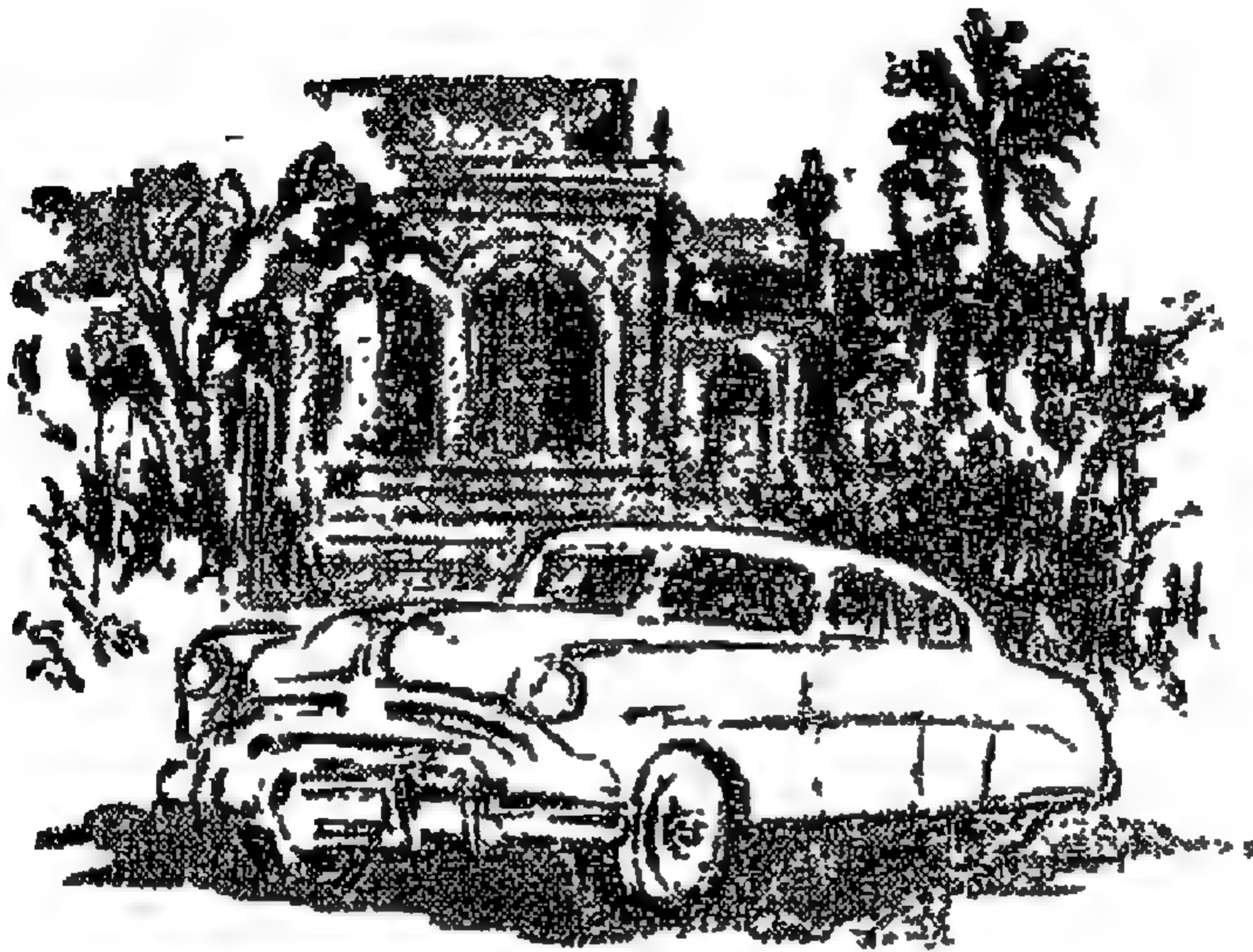
فقال الشيخ بعتاب :

— توضأ واقرأ « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم
الله » ، واقرأ « واصطنعتك لنفسى » وردد قول القائل « المحبة
هى الموافقة أى الطاعة له فيما أمر ، والالتقاء عما زجر ، والرضا
بما حكم وقدر » .

ها هو أبى يسمع ويهز رأسه طربا . ويرمقنى باسماء كأنما
يقول لى اسمع وتعلم . وأنا سعيد وأود غفلة لأتسلق النخلة .
أو أرمى طوبة لأسقط بلحة . وأترنم سرا مع المنشدين . ومع
العودة ذات مساء الى بيت الطلبة بالجيزة رأيته مقبلة تحمل
سلة . جميلة وجذابة ، طاوية هيكلها على جميع ما قدر لى من
هنا الجنّة وعذاب الجحيم . ماذا كان يعجبك من انشاد
المنشدين ؟ لما بدا لاح منار الهدى ، ورأيت الهلال ووجه

الحبيب . لكن الشمس لم تغرب بعد . آخر مخطط ذهبي يتراجع
من الكوة . أمامي ليلة طويلة . هي أولى ليالى الحرية . وحدي
مع الحرية . أو مع الشيخ الغائب فى السماء . المردد لكلمات
لا يمكن أن يعيها مقبل على النار . ولكن هل من مأوى آخر
آوى اليه ؟ ..

الفصل الثالث



قلب صفحات جريدة « الزهرة » حتى عشر على ركن الأستاذ رءوف علوان . وراح يقرأ بشغف وهو لم يزل على مبعدة أذرع من بيت الشيخ على الجنيدى حيث قضى ليلته . لكن من أى مداد يستمد رءوف علوان وحيه ؟ . ملاحظات عن موضة السيدات . مكبرات الصوت ، رد على شكوى زوجة

مجهولة ! . أفكار لذيذة حقاً ولكن أين رءوف علوان ؟ . بيت
الطلبة وتلك الأيام العجيبة الماضية . الحماس الباهر الممثل في
صورة طالب ريشي رث الثياب كبير القلب . والقلم الصادق
المشع . ترى ماذا حدث للدنيا ؟ . وماذا وراء هذه الأعاجيب
والأسرار ؟ . وهل ثمة أحداث وقعت كأحداث عطفة الصيرفي ؟ .
حوادث نبوية وعليش والبنت الصغيرة المحبوبة التي أنكرت
أباها . على أن أقابله . الشيخ أعطاني فراشا فوق الحصيرة
للنوم ولكني في حاجة إلى ثوب . على أن أبدأ الحياة من
جديد يا أستاذ علوان . أنت لا تقل عظمة عن الشيخ على ، أنت
أهم ما لدى في هذه الحياة التي لا أمان لها . وتوقف عن السير
أمام مبنى جريدة الزهرة بميدان المعارف . ضخم حقاً بحيث
لا يسهل السطو عليه ! . وهذا الطابور من السيارات المزدحم
به كحراس الجدران الرهيبة . وأصوات المطابع وراء قضبان
البدروم كهيئة الراقيدين في العنابر . ودخل ضمن تيار الداخلين
ثم وقف أمام مكتب الاستعلامات وسأل بصوت غليظ.
النبرات :

— الأستاذ رءوف علوان ؟

فرمقه الموظف فيما يشبه الامتعاض لنظرة عينيه اللوزيتين
الجريئة لحد الوقاحة . وأجابه بجفاء :

— الدور الرابع ..

قصد من توه المصعد فوققف بين قوم ثدا فيهم غريب المنظر

ببدلته الزرقاء وخذائه المطاط ، وزاد من غرابته نظرته الحادة
الجريئة وأثفه الأقنى الطويل . ولمح بين الواقفين فتاة فلحن في
سره نبوية وعليش وتوعدهما بالويل . وما أن انتهى الى طريقة
الدور الرابع حتى مرق الى حجرة السكرتير قبل أن يتمكن
الساعي من اعتراضه . وجد نفسه في حجرة كبيرة مستطيلة
زجاجية الجدار المطل على الطريق ، وليس بها موضع لجالس
وسمع السكرتير وهو يؤكد لمتحدث في التليفون أن الأستاذ
رءوف مجتمع برئيس التحرير وأنه لن يعود قبل ساعتين .
شعر بأنه غريب حقاً ، لكنه وقف دون مبالاة ، يخلق في
الوجوه بوقاحة كأنما يتحداهم . وقدما كان يرمق أمثالهم بعين
تود ذبحهم ، فما حال هؤلاء اليوم ؟ أما رءوف فلن يصفو له
هنا . وما هذا المكان بالملتقى المناسب للأصدقاء القدامى .
ورءوف اليوم رجل عظيم فيما يبدو . عظيم جدا كهذه الحجرة .
ولم يكن فيما مضى الا محسرا بمجلة النذير ، مجلة منزوية
بشارع محمد علي . ولكنها كانت صوتا مدويا للحرية . ترى
كيف أنت اليوم يا رءوف ؟ هل تغير مثلك يا نبوية ؟ هل
ينكرني مثلك يا سناء ؟ ولكن بعداً لأفكار السوء . هو
الصديق والأستاذ ، وسيف الحرية المسلول ، وسيظل كذلك
-زغم العظمة المخيفة والمقالات الغريبة وسكرتارته الرفيعة .
واذا كانت هذه القلعة لن تتمكني من عنائك فعن دفتر التليفون
سأعرف مسكنك ..

افترش العشب الندى عند كورليش النيل بشارع النيل
ومضى ينتظر . انتظر طويلا على كشب من شجرة حجبت ضوء
المصباح الكهربائي ، تحت سماء غاب عنها الهلال مبكرا تاركاً
النجوم تومض في ظلمة رهيبة . وجرت نسمة رقيقة لطيفة
مقطرة من أنفاس الليل عقب نهار أحمر طغى فيه الصيف
طغيانه . ولم تفارق عيناه الثيلا رقم ١٨ لحظة واحدة ، موليا
النيل ظهره شابكا راحتيه حول ركبتيه . يا لها من قفلا خالية
من ثلاث جهات ، والجهة الرابعة حديقة مترامية . وأشباح هذه
الأشجار تتناجى حول جسد الثيلا الأبيض ، منظر قديم طالما
شهد بالثراء وذكريات التاريخ . ولكن كيف ؟ ، ما الوسيلة ؟ ،
وفي هذه المدة القصيرة ؟ ، حتى اللصوص لا يحلمون بذلك .
اعتدت في الماضي ألا أنظر الى قفلا هكذا الا عند رسم خطة
للسطو عليها ، فكيف آمل اليوم مودة وراء قفلا ؟ ! . رءوف
علوان أنت لغز وعلى اللغز أن يتكلم ، أليس عجيبا أن يكون
علوان على وزن مهران ؟ ! ، وأن يمتلك عيش تعب عمرى كله
بلعبة الكلاب ؟ .

ووثب واقفا عند توقف سيارة أمام باب الثيلا . ولما رأى
البواب يفتح الباب على مصراعيه عبر الطريق بسرعة خاطفة ثم
تصدى للسيارة منحنيا قليلا ليراه صاحبها ، ولكن الرجل لم
يعرفه في الظلام فهتف بصوته الغليظ القوى :

— أستاذ رءوف .. أنا سعيد مهران !

اقترب رأس الرجل من النافذة المفتوحة وهو يقول بصوت
حلقى متزن :

— سعيد ! .. أووووه ..

لم يستطع قراءة وجهه ، لكنه وجد في لهجته ما شجعه ،
ومضت هنيهة صمت وجمود دون أن يفتح باب السيارة ، ثم
فتح الباب وجاءه الصوت قائلاً :

— اركب ..

بداية حسنة . رءوف علوان هو رءوف علوان بالرغم من
السكرتارية الزجاجية والقيلا العجيبة . وانحدرت السيارة في
ممشى كضلع القيثارة متجهة نحو مدخل السلامك .

— سعيد ، كيف حالك يا رجل ، ومتى خرجت ؟

— أمس ..

— أمس ؟

— نعم ، كان يجب أن أقصصك ولكنى شغلت بمسائل
عاجلة ، وكنت في حاجة الى الراحة فبت ليلتي عند الشيخ على
الجنيدى ، أتذكره ؟

فقال وهما يغادران السيارة الى بهو الاستقبال :

— أووووه ! .. شيخ المرحوم والدك ، شهدت حلقاته معك
أكثر من مرة ..

— كانت مسلية !

— وكان يعجبني غناء المنشدين .

وأضاء خادم النجفة فخطفت بصر سعيد بمصاييحها الصاعدة
ونجومها وأهلتها . وعلى ضوئها المنتشر تجلت مرايا الأركان
عاكسة الأضواء ، وتبدت التحف الثاوية على الحوامل المذهبة
كأنما بعثت من ظلمات التاريخ ، وتهاول السقف وزخارف
الأبسطة والمقاعد الوثيرة والوسادة المستقرة عند ملقى الأقدام
وأخيرا استقر البصر على وجه الأستاذ الممتلىء المستدير ، ذلك
الوجه الذى طالما عشقه وحفظه عن ظهر قلب لطول ما أحرق فيه
منصتا . وبينما راح الخادم يفتح باباً مطلاً على الحديقة فى الجدار
الأيسر ويكشف عنه ستائره مضى هو ينظر الى الأستاذ ويلحظ
الروائع مسترقاً . وسرعان ما جرى تيار دسم مفعما بالعبير ،
واختلطت الأضواء بالشذا فأوشك رأسه أن يدور . وجهه
امتلاً كوجه بقرة . وشىء خفى سرى فى شخصه جعله ممتنعاً
رغم طلاقة الوجه وحسن السلوك وابتسامة الثغر . وثمة رائحة
سحرية لا تصدر الا عن دم أزرق رغم أتفه المائل الى الفطس
وفكيه البارزين . وقلبه يخفق فى اشفاق ويتساءل عن المقر ان
انهدم الركن الوحيد الباقي . وجلس رءوف على كنية قريبة
من باب القرائدا وأشار اليه أن يجلس على مقعد وثير يمثل
جانبا من ضلع لمربع من المقاعد تطوق عامودا نورانيا شفافا
موشى بصور أسطورية ، فجلس بلا تردد وبلا مبالاة كعادته .
ومد الأستاذ ساقيه الطويلتين متسائلاً :

— هل جئتنى فى الجريدة ؟

— نعم ولكنى اقتنعت بأنها مكان غير مناسب للقاء !
فضحك عن أسنان اكتنف منابتها لون أسود ثم قال :
— الجريدة عبارة عن دوامة لا تهدأ ، وهل انتظرت هذا
طويلا ؟

— عمر كامل !
فضحك رءوف مرة أخرى وقال بلهجة ذات معنى :
— لا شك أنك عرفت هذا الطريق من قبل ؟ !
فضحك سعيد أيضا قائلا :

— طبعاً ، عرفت فيه زبائن لا ينسى فضلهم ، قتيلا فاضل
باشا حسنين وقد خرجت من زيارتها بألف جنيه ، وقرط ماسي
نادر من قتيلا الممثلة كواكب ...

وجاء الخادم يدفع أمامه نضدا قامت عليه زجاجة وكأسان ،
وجردل صغير أنيق بنفسجي اللون ملئ ثلجا ، وطبق نضد
فوقه التفاح على هيئة هرم . وصحاف فواتح شهية ، وابريق
مياه فضى . وأوماً الأستاذ للخادم فانسحب وراح يملأ بنفسه
الكأسين ثم قدم أحدهما الى سعيد ورفع الأخرى قائلا :
— صحة الحرية ..

وأفرغ سعيد كأسه دفعة واحدة على حين تناول رءوف
رشفة ثم سأله :

— وكيف حال بنتك ؟ ، أووووه ، نسيت أسألك لم بت
ليلتك عند الشيخ على ؟

اله لم يدر شيئا ولكنه ما زال يذكر أنه أنجب بنتا . وفي
إيجاز بارد قاس سرد له تاريخ مأساته حتى قال :

— أمس زرت عطفة الصيرفي فوجدت مخبرا في انتظارى
كما توقعت ، وألكرتني ابتى وصرخت في وجهى ..
وملا كاسا أخرى دون استئذان فقال رءوف :

— حكاية مؤسفة ، أما بنتك فمعدورة ، انها لا تتذكرك ،
وسوف تعرفك وتحبك ..

— لم تعد لى ثقة في جنسها كله ..

— هكذا أنت الآن ، أما غداً فمن يدرى ؟ ، ستغير رأيك
بنفسك ، وهذا هو حال الدنيا ..

ورن جرس التليفون فقام رءوف اليه وتناول السماعة ثم
أصغى قليلا ، وسرعان ما ابتهج وجهه بإبتسامة عريضة ، فرفعه
ومضى به الى الثرائدا . تابعه سعيد من أول الأمر بعينيه
الحادتين . امرأة ؟ ! . هذه الإبتسامة وهذه الرحلة الى الظلام
لا تكونان الا لامرأة . ترى أما زال أعزب ؟ . هاهما يجلسان
جنباً الى جنب ، يتبادلان الشراب والحديث ، ولكن ثمة شعورا
كالا حساس الخفى المنذر باكتشاف دمل يوسوس له بأن معاودة
هذا اللقاء شيء عسير حقا . لا يدرى لماذا يطبق عليه . وهو
يصدقه كإنسان يعتمد كثيرا على غرائزه الملهمه . انه اليوم من
أهل الطريق الذى لم يعتد زيارته الا معتديا . ولعله تورط في
الترحيب به مضطرا . ولعله تغير حقا فلم يبق من الشخص

القديم الا ظل صورته . وجلجلت ضحكة في القرائدا فازداد
تشاؤما . وتناول تفاحة بهدوء ومضى يقضمها . ما حياته الا
امتداد لأفكار هذا الرجل الضاحك في التليفون فاذا كان قد
خانها فالويل له . وأخيرا عاد رءوف علوان من القرائدا فوضع
التليفون على حامله ثم جلس وهو يبدو راضيا تماما :

— مباركة عليك الحرية ، هي كنز ثمين يعزى عن فقد أى
شء مهما غلا ..

فتناول قطعة من البسطرمة وهو يهز رأسه بالايجاب ولكن
دون اهتمام جدى :

— وها أنت تخرج من السجن لتجد دنيا جديدة ..

وملأ كأسين ومضى سعيد يلتهم ألوان الطعام بشراهة .
وحالت منه نظرة الى صاحبه فابتسم هذا بسرعة ليغطفى على
نظرة امتعاض ! . أنت مجنون ان تصورت أنه يرحب بك من
قلبه . ما هي الا مجاملة بنت حياء . ولن يلبث أن يتبخر هذا
الحياء . كل خيانة تهون الا هذه . يا للفراغ الذى سيلتهم
الدنيا . ومد رءوف يده الى علبة سجائر محلاة بنقوش صينية
في تجويف بالعامود المضى فتناول سيجارة وهو يقول :

— يا عم سعيد ، زال تماما جميع ما كان ينغص علينا صفو
الحياة ..

فقال سعيد من فم مكنتظ :

— طاملاً هزتنا الأنباء في السجن ، من كان يحلم بشيء
كهذا ؟ !

ثم وهو يحدجه بنظرة باسمه :

— لا حرب الآن !

— لتكن هدنة ! ، ولكل جهاد ميدان ..

وألقى سعيد نظرة فيما حوله قائلاً :

— وهذا البهو الرائع كالميدان ..

وأسف على افلات هذه الملاحظة . ولمح في عيني صاحبه
نظرة باردة . ألا يعرف لسانك ما الأدب ! . وتساءل رءوف
بهدهوء غاضب :

— أي وجه شبه بين هذا البهو والميدان ؟

فزاغ قائلاً :

— أقصد أنه مثال للذوق الرفيع ..

فضيق رءوف عينيه امتعاضاً وقال بسخط ووضح :

— المراوغة عبث ، أفصح عما بنفسك ، أنا أفهمك وأنت
خير من يعرف ذلك !

فضحك سعيد متودداً وهو يقول :

— لم أقصد سوءاً على الإطلاق ..

— يجب أن تذكر دائماً أنني أعيش بعرقى وكدى ..

— هذا ما لا أشك فيه مطلقاً ، بالله لا تغضب هكذا ..

فراح يدخن السيجارة بسرعة عصبية دون أن ينطق حتى
اضطر سعيد الى التوقف عن الأكل وقال بلهجة المعتذر :

— لم أتخلص بعد من جو السجن فيلزمنى وقت طويل
حتى أسترجع آداب الحديث والسلوك ، ولا تنس أن رأسى
ما زال دائرا من أثر المقابلة الغريبة التى أنكرتني فيها ابنتى ..
والظاهر أن رءوف أعرب عن عفوه برفع حاجبيه الصاعدة
شعيراتهما الى أعلى ، ولما رأى عيني الرجل تنتقلان بين وجهه
وبين الطعام كأنما يستأذنه فى معاودة الأكل قال بهدوئه السابق :
— كل ..

فهجم سعيد على بقايا الصحف بلا تردد ولا تأثر بما كان
حتى مسحها . وعند ذاك قال رءوف ولعله رغب فى الهاء
المقابلة :

— يجب أن يتغير الحال تماما ، هل فكرت فى المستقبل ؟
فقال سعيد وهو يشعل سيجارة :

— لم يسمح الماضى بعد بالتفكير فى المستقبل ..
— يخيّل الى أن النساء أكثر عددا من الرجال فلا تكثر
لخيانة امرأة ، أما ابنتك فستعرفك يوما وتحبك ، المهم الآن أن
تبحث لك عن عمل ..
فقال وهو ينظر الى تمثال اله صينى بدا آية فى الوقار
والنعاس :

— تعلمت فى السجن الحياطة !

فتساءل الأستاذ في دهشة :
— أترغب في أن تفتح دكان خياط ؟
فقال بهدوء :
— بكل تأكيد كلاً ! ..
— ماذا اذن ؟
فقال وهو يحدثه بنظرة وقحة :
— لم أتقن في حياتي الا حرفة واحدة ..
فتساءل كالمنزعج :
— أترجع الى اللصوصية ؟
— هي مجزية جداً كما تعلم ..
فصرخ بحدة :
— كما تعلم ! من أين لى أن أعلم ؟ !
فرمقه بدهشة قائلاً :
— لم تغضب هكذا ؟ ، قصدت أن أقول كما تعلم عن
ماضى ، أليس كذلك ؟
وخفض رءوف عينيه كأنما يقنع نفسه بقوله ولكن وضح
أنه لم يعد فى الامكان أن يعود وجهه الى صفائه الطبيعى .
وقال بلهجة من يرغب فى الاجهاز على الحديث :
— سعيد ، ليس اليوم كالأمس ، كنت لصاً وكنت صديقاً
لى فى ذات الوقت لأسباب أفت تعرفها ، ولكن اليوم غير
الأمس ، اذا عدت الى اللصوصية فلن تكون الا لصاً فحسب !

فاتتشر واقفا في عصبية وهو يواجه اليأس في صراحته
القاسية ، ولكنه خنق انفعاله بارادة من حديد فعاد الى الجلوس
وهو يقول بهدوء :

— اختر لى عملا مناسباً !

— أى عمل ، تكلم أنت وأنا مصغ اليك ..

فقال بسخرية خفية في الأعماق :

— يسعدنى أن أعمل صخفيا في جريدتك ! ، أنا مثقف ،
وتلميذ قديم لك ، قرأت تلالا من الكتب بارشادك ، وطالما
شهدت لى بالنجابة ..

فهز رءوف رأسه في ضجر حتى لعب الضوء فوق شعره
الأسود الغزير وقال :

— لا وقت للمزاح ، أنت لم تمارس الكتابة قط ، وأنت
خرجت أمس فقط من السجن ، وأنت تعبث وتضيع وقتى
بلا طائل ..

فقال بامتعاض :

— اذن على أن أختار عملا حقيرا ؟

— لا عمل حقير على الإطلاق ما دام شريفا ..

غلبته المرارة بعد اليأس فلم يعد يبالى شيئا ، وبسرعة جرى
ببصره في أنحاء البهو الأنيق ، ثم قال فيما يشبه التحدى :

— ما أجمل أن ينصحنا الأغنياء بالفقر .. !

فكان جوابه أن نظر في ساعته فقال سعيد برقة :

— أنا واثق من أنني أخذت من وقتك أكثر مما يجوز ..

فقال رءوف بصراحة شمس يوليو :

— نعم فأنا مرهق بالعمل !

فوقف وهو يقول :

— أشكر لك الضيافة والعشاء ونبل الأخلاق ..

وأخرج رءوف حافظة ثقوده فأعطاه منها ورقتين من ذات
الحسنة الجنيهاات قائلاً :

— حتى تفرج ، ولا تؤاخذنى اذا قلت لك اننى مرهق
بالعمل ، وانه من النادر أن تجدنى خاليا كما وجدتني الليلة ..
فتناول الجنيهاات باسما وصافحه بحرارة ، ثم قال بنبرة
رجاء :

— ربنا يتم نعمته عليك ..

الفصل الرابع

هذا هو رءوف علوان ، الحقيقة العارية ، جثة عفنة لا يوارىها تراب . أما الآخر فقد مضى كأمس أو كأول يوم في التاريخ أو كحب نبوية أو كولاء عيش . أنت لا تنخدع بالمظاهر بالكلام الطيب مكر والابتسامة شفة تتقلص والجود حركة دفاع من أنامل اليد ولولا الحياء ما أذن لك بتجاوز العتبة . تخلقني ثم ترد ، تغير بكل بساطة فكرك بعد أن تجسد في شخصي ، كي أجد نفسي ضائعا بلا أصل وبلا قيمة وبلا أمل ، خيانة لثيمة لو اندك المقطم عليها دكا ما شفيت نفسي . ترى أتقر بخيانتك ولو بينك وبين نفسك أم خدعتها كما تحاول خداع الآخرين ؟ ، ألا يستيقظ ضميرك ولو في الظلام ؟ ، أود أن أتهذ الى ذاتك كما تهذت الى بيت التحف والمرايا بيتك ، ولكني لن أجد الا الخيانة . سأجد نبوية في ثياب رءوف أو رءوف في ثياب نبوية أو عيش سدرية مكانهما وستعترف لي بالخيانة بأنها أسمع رذيلة فوق الأرض . من وراء الظهر تبادل الأعين نظرات مريبة قلقة مضطربة كتيار الشهوة التي يحملها . كالقطة الزاحفة على بطنها في هيئة الموت نحو عصفورة سادرة .

وغلبت الاتهامية ثمالة الحياء والتردد فقال عlish سدره في ركن عطفة أو ربما في بيتي « سادل البوليس عليه لتتخلص منه » ، فسكتت أم البنت ، سكت اللسان الذي طالما قال لي بكل سخاء أحبك يا سيد الرجال . هكذا وجدت نفسي محصورا في عطفة الصيرفي ولم يكن الجن نفسه يستطيع أن يحاصرني ، وانهاالت على اللكمات والصفعات . كذلك أنت يا رءوف ، لا أدري أيكما أخون من الآخر ، ولكن ذنبك أقطع يا صاحب العقل والتاريخ ، تدفع بي الى السجن وتشب أنت الى قصر الأنوار والمرايا ، أنسيت أقوالك الماثورة عن القصور والأكواخ ؟ ، أما أنا فلا أنسى !

وبلغ جسر عباس فجلس على أريكة حجرية واتبه الى الطريق لأول مرة . وقال بصوت مسموع كأنما يخاطب الظلام « خير البر عاجله ، الساعة وقبل أن يفيق من دهشته ! » . لاسبيل الى التردد فمهنتك هي مهنتك ، صالحة وعادلة ، وبخاصة عندما تطبق على فيلسوفها . وعندما أفرغ من تأديب الأوغاد فسأجد في الأرض متسعا للاختفاء . هل يمكن أن أمضي في الحياة بلا ماض فأتناسي نبوية وعليش ورءوف ؟ ، لو استطعت لكنت أخف وزنا وأضمن للراحة وأبعد عن حبل المشنقة ولكن هيهات أن يطيب العيش الا بتصفية الحساب . لن أنسى الماضي لسبب بسيط هو أنه حاضر — لا ماض — في نفسي . وستكون مغامرة الليلة خير ابتداء أفتتح به العمل ، وستكون مغامرة دسمة .

وجرى النيل كأمواج من الظلام تنغرس في جنباتها أسهم الضياء
المنعكسة من مصابيح الشاطيء . وساد صمت شامل مريح ،
ثم دنت النجوم من الأرض عندما اقترب الفجر . وقام عن
مجلسه فتمطى ثم سار على مقربة من الشاطيء نحو المكان
الذى جاء منه . جعل يتقدم على مهل متحاشيا الأنوار الضئيلة
الباقية حتى هذه الساعة من الفجر ، وتباطأ أكثر عندما لاح
لعينه القصر الخالى من نواحيه الثلاث . وراقب الطريق بحدة
أرضه وأسوار القصور والشاطيء ثم استقرت عيناه على
القصر . بدا القصر مسدل الجفون تحرسه الأشجار من كل
جانب كالأشباح . نامت الخيانة في هدوء بديع لا تستحقه البتة .
مغامرة دسمة ستعطى ردا حاسما على خداع العمر كله . وعبر
الطريق في خطوات طبيعية دون تلفت أو حذر ، ثم سار بحذاء
السور في الشارع الجانبى وهو يتفحص ما أمامه بعناية
شديدة ، فلما اطمأن الى خلو المكان مال فجأة لصق السور
منغرضا في الياسمين والبنفسج وتوقف عن أية حركة . ان يكن
في القصر كلب — غير صاحبه — فسيملأ الدنيا نباحا ، ولكن
لم تند عن الصمت همسة واحدة . يا رءوف .. تلميذك قادم
ليحمل عنك بعض متاع الدنيا . وتسلق السور بخفة وبأطراف
تخنكة كأنها أطراف قرد ولم تعقه الأغصان الكثيفة الملتفة
النارقة في الأوراق والأزهار ، ثم اعتمد على قبضتيه ورفع
جسمه بقوة الذاتية الى ما فوق الأسنان المادية وهبط به حتى

اشتبكت ساقاه بالأغصان في الداخل فلبد فيها ريثما يسترد أنفاسه ، وليراقب الحديقة المكتظة بالشجيرات والأشجار والظلمة . عليك أن تصعد الى السطح ومنه تهبط الى الداخل حتى تعرف طريقك ، لا آلة معك ولا بطارية ولا فكرة سابقة عن المكان . لم تسبقك نبوية اليه لتعمل غسالة أو خادمة بعض الوقت فهي اليوم مشغولة بعليش سدره . وقطب بعنف ليترد عنه هذه الأفكار ، ونزل بحذر الى الأرض ، ثم زحف على أربع متجها نحو جدار الثيللا . ودار مع البناء متحسسا الحيطان حتى عثر على ماسورة . وأخذ يتسلق بمهارة البهلوان . وكان السطح مقصده غير أنه مر بنافذة مفتوحة غير بعيدة منه ، وفي الحال قرر تجربتها . سدد ساقه نحو النافذة حتى انطرحت على حافتها ، وشد أعصاب يديه منتقلا بهما فوق كوريش الحائط حتى استقر جميعه فوق حافة النافذة . وانزلق الى الداخل فوجد نفسه في مكان חדس أنه مطبخ . وضايقته كثافة الظلمة فجد باحثا عن الباب ، وكان يتوقع ظلمة أكثف في الداخل ، ولكنه حلم بحافظة تقود رءوف أو بعض التحف ، وكان عليه أن يتقدم . تسلل من الباب متلمسا الجدار بيديه ، وقطع مسافة غير قصيرة وكثافة الظلام تكاد تصده ، ثم أحس تيارا خفيفا من الهواء يلفح وجه . من أين يجيء الهواء ؟ . وانعطف مع انعطاف الجدار الأملس وتقدم مادا ذراعه محركا أصابعه حتى لمست أسلاكاً بلورية مسدلة محدثة وسوسة خفيفة انقبض لها

قلبه . ستارة لا شك في ذلك ، اقترب الآن من هدفه ، واتجه فكره نحو علبة الثقاب في جيبه دون أن يد لها يدا ، وفتح بخفة ثغرة دلف منها الى الداخل ، وضيق ما بين ذراعيه ليعيد الستارة الى وضعها الطبيعي دون صوت . وتقدم خطوة فارتطم بمقعد أو بقائم ما لا يدريه ، وتفادى منه وهو يرفع رأسه ملتصقا نورا خافتا ساهرا — وقد تعلق أمله بالوصول اليه — ولكنه رأى ظلاما مطبقا كالكابوس . وفكر في اشعال عود ثقاب للحظة واحدة . وبغته دهمه نور ساطع من كل ناحية . نور شديد انقض عليه كلكمة قاضية . الغلق جفناه بلا ارادة ولما فتحهما رأى رءوف علوان على بعد ذراعين . على بعد ذراعين في روب طويل بدا فيه عملاقا ، ويده مدسوسة في جيبه مشدودة كأنها تقبض على سلاح ، هكذا ظن . ونظرة عينيه الباردة زادت قلبه المهزوم برودة ، وانطباق شفقيه الناطق بالعداوة والكراهية . والصمت القاتل أثقل من سور السجن ، والسجان عبد ربه سيقول هازئا ما أسرع أن رجعت . وانطلق صوت نحاسي من وراء ظهره يتساءل :

— فنادى البوليس ؟

فالتفت وراءه فرأى ثلاثة من الخدم يقفون صفا غير أن رءوف خرج عن صمته قائلا .

— اذهبوا خارجا وانتظروا ..

ولما فتح الباب ثم أغلق وراءهم أدرك خطفا أنه باب خشبي

ذو زخارف عريية محلى الرأس بحكمة أو مثل أو آية من
الصدف . وأرجع رأسه من التفاتته ليلقى النظرات العابسة
ويسمع صوته الخشن وهو يقول :

— من الغباء أن تجرب ألاعيبك معى أنا ، أنا فاهمك
وحافظك عن ظهر قلب ..

لم ينبس ومضى يفيق من ضربة المفاجأة ولكن على استسلام
كالياس وإن داخله شعور بأنه لن يسلم الى القبضه التى أفلت
منها أمس أو هكذا شعر ..

— كنت فى انتظارك ، على أتم استعداد ، بل ورسمت لك
طريق السير ، وددت لو يخطئ ظنى ، ولكن أى سوء ظن
فيك يخطئ ؟ !

غض بصره لحظات فرأى ما تحت قدميه من مشمع لامع
ثم رفعهما دون أن يحاول الخروج عن صمته .

— لا فائدة ، لن تنتهى من خقارتك ، وستموت حقيرا ،
وخير ما أفعله الآن أن أسلمك الى البوليس ..

فاختليج جفناه وانفجرت شفتاه فى عصبية ، فتساءل رءوف
بحدّة :

— ماذا جئت تريد ؟

فغض بصره مرة أخرى .

— أنت تفصح عن عداوتك ، نسيت الاحسان وتركزت



فى الحقء والحسد ، انى أعرف أفكارك بقدر ما أعرف
حركاك ..

وبصوت خافت وبعينين تخفیان فى الأرض قال :
— رأسى دائر ، وما زال دائرا منذ خرجت من السجن ..
— كذاب ، لا تحاول خداعى ، أنت تتوهم أنى صرت
واحدا من الأغنياء الذين كنت أحمى عليهم ، وعلى هذا الأساس
أردت أن تعاملنى ..

— ليس الأمر كذلك ..

— اذن لم تسلفت الى بيتى ؟ ، لم تريد أن تسرقنى ؟
تردد سعيد مليا ثم قال :

— لا أدرى ، لست فى حالة طبيعية ، وأنت لن تصدقنى !
— طبعا ، لأنك تعلم أنك كاذب ، لم تقتنع بكلماتى
الطيبة ، ثار حسدك وغرورك ، اندفعت كالجنون نفسه كما هى
عادتك ، ولك ما تشاء فستجد نفسك فى السجن مرة أخرى ..
فقال فى تسليم :

— اعذرنى ، ما زلت أعيش بعقلىة السجن وما قبله ..
— لا عذر لك ، أنا أقرأ أفكارك ، قرأت كل جملة مرت
بعقلك ، كل جملة ، الصورة الكاملة التى تتصورنى فيها ،
والآن آن لى أن أسلمك للبولىس ..
فمد يده كالرجاء قائلاً :
— كلا ..

— كلا ؟ ! ، ألا تستحقه ؟

— بلى ، ولكن كلا ..

فنفخ غاضبا وهو يقول :

— ان رأيتك مرة أخرى فسأسحقك كحشرة ..

وهم بالتحرك فى سبيل النجاة ولكنه صاح به :

— ارجع النقود !

فجمد بصره دقيقة ، ثم دس يده فى جيبه فأخرج الورقتين

فتناولهما الآخر قائلا :

— لا ترنى وجهك مرة أخرى ..

عاد الى شاطئ النيل وهو لا يصدق أنه نجا ولكن راحة
النجاة تكدرت بالهزيمة . وعجب تحت أنفاس الفجر الرطبية
كيف أنه لم ينتبه الى هوية الحجرة التى ضبط فيها وأنه لم يكده
يرى منها إلا بابها المزخرف وأرضها الشمعية . واستسلم لرحمة
الفجر الندية متعزيا الى حين عن كل شيء حتى عن ضياع
الورقتين ، ثم رفع رأسه الى السماء فهال لمعان النجوم المائل
فى هذه الساعة من الفجر ..

الفصل الخامس



حملك الرجال القليلون بأعين لا تصدق ، وقاموا قومة رجل
واحد :

— يا أرض احفظي ما عليك !

— ليلة بيضا بالصلاة على النبي .

وأحدقوا به وعلى رأسهم معلم القهوة وصبيه وعانقوه

وقبلوا وجنتيه . وشد سعيد مهران على أيديهم واحدا فواحدا
وهو يقول بامتنان :

— أشكرك يا معلم طرزان ، أشكركم يا اخوان ..

— متى ؟

— أول أمس .

— تفاء لنا خيرا بأخبار العيد .

— الحمد لله .

— وبقية الجدعان ؟

— بخير ، وكل شيء بأوان !

ولبثوا يتبادلون الأخبار حتى أخذهم المعلم الى أريكته
ورجاهم أن يعودوا الى مجالسهم فعادت القهوة الى هدوئها .
لم يتغير شيء كأنه تركها بالأمس . الحجرة المستديرة ، النصبه
النحاسية ، الكراسى الخشبية ذات المقاعد من القش المفتول ،
الزبائن القلائل المعروفون الموزعون في الأركان ، يحتسون
الشاي ويعقدون الصفقات . ومن خلال النافذة الكبيرة والباب
لاح الخلاء شاملا متراميا الى غير نهاية ، والظلام كثيفا لا تخففه
بارقة ، والصمت مهيبا عدا ضحكات متقطعة يرمى بها الهواء
من الخارج ، وجري تيار جاف منعش ما بين الباب والنافذة
يحمل طابع الصحراء من القوة والنقاء . تناول سعيد قدح
الشاي من الصبي ثم رفعه الى فيه قبل أن يبرد . ومال نحو
المعلم متسائلا :

— كيف حال الشغل ؟
 فلوى طرزان شفته السفلى فى امتعاض وقال :
 — ندر من يعتمد عليه من الرجال !
 — لم كفى الله الشر ؟
 — تنابلة كأنهم موظفو الحكومة !
 فندت عنه نفخة ساخرة وقال :
 — التنبل على أى حال خير من الخائن ، بسبب خائن دخلت
 السجن يا معلم طرزان .
 — يا لطف الله !
 فحدجه بنظرة نافذة متسائلا :
 — ألم تسمع بالخبر ؟
 فهز المعلم رأسه فى أسف ولاذ بصمت مبين ، فهمس سعيد
 فى أذنه :
 — يلزمنى مسدس جيد !
 فقال طرزان بلا تردد :
 — تحت أمرك ..
 فربت على منكبه شاكرا ثم قال بشيء من الارتباك :
 — لكن ليس ..
 فوضع أصبعه الغليظ على شفثيه قاطعا كلامه فى عتاب
 وهو يقول :
 — لا عاش من أحوجك الى اعتذار !

وأتى على ما فى القـدح فى ارتياح ، ثم قام ماضيا الى
النافذة . وقف وراءها ناصبا قامته النحيلة المفتولة المتوسطة
الطول فبسط الهواء جناحي جاكته كالشراع ، ومد البصر
الى الخلاء المنتشر على الأرض المفعم بالظلام ، فتبدت النجوم
فى السماء الصافية كالرمال . وكأن القهوة جزيرة فى محيط أو
طيارة فى سماء . وفى أسفل الهضبة التى تقوم عليها القهوة
تحركت السجائر — كالنجوم — فى أيدي الجالسين فى الظلمة
من رواد الهواء الطلق ، وعند الأفق الغربى لاحت أنوار
العباسية بعيدة جدا يشعر بعدها بمدى توغل القهوة فى
الصحراء . وأطل من النافذة فصعدت اليه أصوات الجالسين
حول الهضبة ، النازحين الى الصحراء طلبا للهواء والراحة .
وانحدر اليهم صبي القهوة حاملا نارجيلة تتوهج جمراتها
ويتطاير منها الشرر مطلقا . واحتدم السمر تتخلله الضحكات ،
وقال صوت يافع ملتذا بالحديث فيما بدا :

— دلونى على مكان واحد فى الأرض ينعم بالطمأنينة ؟

فأجابه آخر متحديا :

— هذا المجلس ، ألا ينعم مجلسنا الآن بالطمأنينة ؟

— تقول « الآن » وهذه هى المأساة .. !

— لم نلن القلق والمخاوف ، ألا تعفينا فى النهاية من
التفكير فى المستقبل ؟

— اذن فأنت عدو للسلام والاستقرار !

— اذا كان حبل المشنقة حول عنقك فالطبيعى أن تخشى
الاستقرار .

— هذه مسألة خاصة يمكن معالجتها فيما بينك وبين
عشماوى ..

— أتم تثرثرون فى هناء لأنكم فى حمى الظلام والصحراء
ولكنكم لن تلبثوا أن تعودوا الى المدينة فما الفائدة ؟
— المأساة الحقيقية هى أن عدونا هو صديقنا فى الوقت
نفسه ..

— أبدا المأساة الحقيقية هى أن صديقنا هو عدونا ..

— بل ائنا جبناء ، لم لا نعتزف بهذا ؟

— ربما ولكن كيف تتأتى لنا الشجاعة فى هذا العصر ؟
— الشجاعة هى الشجاعة .

— والموت هو الموت ..

— والظلام والصحراء هى هذا كله !

يا له من سمر . ماذا يقصدون ؟ . لكنك شعرت بأنهم
يعبرون عن خالك على نحو ما . نعم على نحو غامض كأسرار
هذا الليل . أنت أيضا كانت لك يفاعه متوثبة . والقلب سكران
برحيق الحماس . والسلاح تحصل عليه للجهاد ولا للاغتيال .
وراء هذه الهضبة التى تقوم عليها القهوة كان فتية يتدربون
على القتال بشباب رثة وضماير ثقية . وساكن القصر رقم ١٩
كان على رأسهم . على رأسهم يثمرن ويمرن ويلقى بالحكم .

المسدس أهم من الرغيف يا سعيد مهران ، المسدس أهم من حلقة الذكر التي تجرى اليها وراء أريك ، وذات مساء سألك « سعيد ، ماذا يحتاج الفتى في هذا الوطن ؟ » ثم أجاب بـ « من ينتظر جوابك » الى المسدس والكتاب ، المسدس يتكفل بالماضى والكتاب للمستقبل ، تدرب واقرأ . ووجهه وهو يقهقه في بيت الطلبة قائلاً : « سرقت ؟ ... هل امتدت يدك الى السرقة حقاً ؟ ، براقوا ! ، كى يتخفف المعتصبون من بعض ذنبهم ، انه عمل مشروع يا سعيد ، لا تشك في ذلك » وشهد هذا الخلاء مهارتك . قالوا انك الموت نفسه وان طلقتك لا تخيب . وأغمض عينيه مستسلماً للهواء النقي واذا بيد توضع على كتفه فالتفت وراءه فرأى المعلم طرزان ماداً يده الأخرى بالمسدس وهو يقول :

— نار على عدوك باذن الله ..

فتناولوه ومضى يتفحصه ويختبره ، ثم سأله :

— بكم يا معلم ؟

— هدية !

— كلا ، كل ما أرجوه أن تمهلى الى ميسرة ..

— كم طلقة تحتاج ؟

وعادا معا متجهين نحو أريكة المعلم . وعندما مرا بـ

القهوة لعلت في الخارج ضحكة أثوية فضحك المعلم طرزان وقال :

— نور ، ألا تذكرها ؟

نظر سعيد الى الظلام خارج الباب فلم ير شيئا وتساءل :
— أما زالت تجيء الى هنا ؟

— من حين لآخر ، ستفرح لرؤيتك ..
— صايدة ؟

— طبعا ، ولد ابن صاحب مصنع حلوى ..

ولما جلسا على الأريكة نادى المعلم صبيه وقال له :
— بصنعة لطافة قل لنور أن تأتي ..

لتأت ليرى ماذا فعل الزمان بها . التي عبثا أرادت امتازك
قلبه . قلبك الذي كان ملكا خالصا للخائنة . وليس أقسى على
القلب من أن يروم قلبا أصم . عندما تخاطب البلابل حجرا أو
تداعب النسمة أسنانا مدبية . حتى هداياها اليه كان يهديها الى
نبوية عlish . وربت المسدس وهو مستكن في جيبه وعرض على
أسنانه . وظهرت نور عند الباب غير متوقفة للمفاجأة التي
تنتظرها . فلما رآته توقفت على بعد خطوات في ذهول . ونظر
اليها باسم وفي امعان . بدت أنحل مما كانت واختفى وجهها
تماما تحت المساحيق الدسمة . ونطق بالاغراء فستان أبيض
انطلقت منه الأذرع والسيقان بلا حرج وقد شد حول جسدها
كالملطاط حتى صرخ التهمتك ، وعربد شعر رأسها القصير في
تيار الهواء . وسرعان ما هرعت اليه حتى تلاقت الأيدي وهي
تقول :

— حمداً لله على سلامتك ..
 وضحكت ضحكة عصبية تدارى بها تأثيرها ، ثم اندست
 بينه وبين المعلم طرزان .
 — كيف حالك يا نور ؟
 فأجاب طرزان باسم :
 — هي كما ترى نور ونور !
 وقالت المرأة :
 — بخير ، وأنت ؟ ، صحتك عال ، لكن عينيك ؟ ، أنا أعرفك
 وأنت غضبان !
 فتساءل باسم :
 — كيف ؟
 — لا أدري كيف أقول ، نظرة محمرة ! ، وانذار يتحرك
 في شفطيك ..
 ضحك ، ثم قال بأسف :
 — سيأتي صاحبك ليأخذك ...
 فقالت وهي تهز رأسها لتزيح خصلة شعر عن عينيها :
 — انه لا يعرف رأسه من رجليه !
 — على أى حال فأنت مقيدة به ..
 فرمته بنظرة ماكرة وهي تتساءل :
 — أتحب أن أدفنه في الرمال ؟
 — ليس الليلة ، سنلتقى فيما بعد ..

ثم بشيء من الاهتمام :

— قيل انه لقطة ؟

— نعم، وسنذهب بسيارته الى مدفن الشهيد فهو يحب الخلاء !

وتجلت في عينيه نظرة اهتمام لم تخف عليها ، وتساءل
وكأنما يحدث نفسه :

— يحب الخلاء عند مدفن الشهيد ؟

اضطرب جفناها ، وازداد اضطرابها عندما التقت عيناهما ،
ثم تساءلت في عتاب :

— أرايت أنك لا تفكر في ؟

وهو لا يكاد يلقي بالا الى عتابها :

— لم ؟ ، أنت عزيزة جدا !

— بل أنت تفكر في اللقطة !

فابتسم قائلاً :

— انه ضمن تفكيرى فيك !

فقلت بقلق :

— ان انكشف أمرى ضعت ، أبوه قوى وأهله كالنمل ،

هل أنت في حاجة الى تقود ؟

— في حاجة الى السيارة أشد !

وقام وهو يقرص خدها برقة ويقول :

— كوني طبيعية جدا ، لن يحدث شيء مما تخافين ، ولن

تتجه اليك الظنون ، لست طفلا ، وسوف نلتقى بعد ذلك أكثر

مما تصورين .

الفصل السادس

تجنب الطريق الملاصق للشكنات ، واخترق الصحراء نحو مدفن الشهيد ليبلغه في أقصر وقت . وكان كأنما يهتدى ببوصلة مركبة في رأسه لسابق درايته بصحراء العباسية . وعندما راحت له قبة المدفن الضخمة تحت ضوء النجوم راحت عيناه تفتشان عن المكان الذي تنزوى فيه السيارة . ودار حول المدفن وهو يحدّ بصره ولا يعثر على ضالته حتى بلغ ضلعه الجنوبي فتراءى له شبح هيكلها راقدًا على بعد . مضى نحوها مصمما ، ثم ما لبث أن أحنى ظهره حتى انخفض رأسه الى مستوى ركبتيه واقترب منها فوضح لأذنيه أن الصمت يتخلخل بهمسات مفرقة في السر . سيدعر قلب هائيء وتتبدد مسرة ولكن لا ذنب لك . الاختلال يطبق علينا مثل قبة السماء . وقديما قال رءوف علوان ان نوايانا طيبة ولكن ينقصنا النظام . واشتد اقترابه فيما يشبه الزحف حتى قبضت راحته على مقبض الباب ونفحته حرارة النفثات . شد على المقبض وجذب الباب بقوة هاتفا :

— لا تتحرك !

وانطلقت من عنف المفاجأة آهتان ، ولاح له الرأسان وهما يتطلعان اليه في فزع . لوح بالمسدس قائلا بوحشية :



— سأطلق النار لأدنى حركة ، اخرجنا ..

وجاءه صوت نور متوسلا :

— فى عرضك ..

وتساءل الآخر بصوت مختنق مبجوح كأنه ينطلق خلال

رمل وحصى :

— ماذا ... ماذا تريد من فضلك ؟

— اخرجنا ..

ألقت نور بجسمها الى الخارج قابضة على ثيابها فى كومة

واحدة ، وتبعها الشاب وهو يدس نفسه فى بنطلونه متعثرا .

ولم يجهله فقرَّب منه المسدس حتى هتف بصوت باك :

— لا .. لا .. لا تطلق ..

فقال بصوت غليظ آمر :

— النقود !

— الجاكتة فى الداخل ..

فدفع نور الى الداخل قائلا :

— ادخلى أنت ..

فدخلت متأوهة من عنف الدفعة وهى تردد :

— فى عرضك اتركنى !

— هاتى الجاكتة ..

وتناولها منها ، وبسرعة أخذ المحفظة ورماء بها آمرا :

— عندك دقيقة لتنجو بحياتك !

انطلق الشاب في الغلام كالشهاب . وارتقى هو داخل
السيارة بسرعة فائقة ، وسرعان ما أدار المحرك فاندفعت مدوية .
وأكملت ارتداء ثيابها وهي تقول :

— فزعت حقيقة كآنى لم أكن أتوقعك !
فقال والسيارة تنطلق بسرعة مخيفة :

— بلى ريقك ..

فأعطته زجاجة تناول منها جرعة ثم ردها اليها ففعلت مثله
ثم قالت :

— ركب سابت ، مسكين !

— قلبك أبيض ، أما أنا فلا أحب أصحاب المصانع ..

فاعتدلت في جلستها وهي تقول بلهجة ذات معنى :

— الحقيقة أنك لا تحب أحدا !

ولم يجد رغبة في المغازلة فلم يرد ، وبدأ أن السيارة تتجه
نحو العباسية فتوسلت اليه قائلة :

— سيرونى معك !

وكان يفكر في ذلك أيضا فمال مع الطريق المتفرع الذى
يفضى في النهاية الى الدراسة . وخفف من السرعة قليلا ، ثم
راح يقول :

— قصدت قهوة طرزان لأحصل على مسدس ولأتفق

أمكن مع سائق تاكس من زملائنا القدامى فانظري كيف رمى
لى الحظ بهذه السيارة .

- ألا ترى أنتى نافعة دائماً ؟
- دائماً ، وكنت رائعة ، لم لا تشتغلين ممثلة ؟
- ولكنى فزعت أول الأمر حقيقة ..
- وبعد ذلك ؟
- أرجو أن أكون قد أتقنت دورى حتى لا يشك فى ..
- لم يكن فى رأسه عقل ليشك فى أحد ..
- واتجه رأسها نحوه ثم سألته :
- لم تريد المسدس والسيارة ؟
- لزوم العمل ..
- يا خبر ! ، متى خرجت من السجن ؟
- أول أمس .
- وتعود الى التفكير فى ذلك ؟
- هل يسهل عليك تغيير صنعتك ؟
- فلم تجبه ونظرت الى الطريق المظلم الذى تلتهم أرضه بضوء السيارة وقد اقترب الجبل عند المنعطف كقطعة من الليل أشد كثافة ، ثم قالت برقة :
- أتدرى كم حزنت عندما علمت بسجنك ؟
- كم ؟
- بشيء من الحدة :
- متى تكف عن السخرية ؟

- لكنى جاد جدا وواثق من صدق قلبك ..
- أما أنت فلا قلب لك ..
- حجزوه فى السجن كما تقضى التعليمات ..
- أنت داخل السجن بلا قلب ..
- لم الالحاح على حديث القلوب . اسألى الخائنة واسألى الكلاب واسألى البنت التى أنكرتنى .
- سنوفق يوما الى العثور عليه ..
- وأين تبیت هذه الليلة ؟.. هل تدرى زوجتك أين أنت ؟
- لا أظن !
- هل أنت ذاهب الى بيتك ؟
- لا أظن ، ليس الليلة على أى حال ..
- فقلت برجاء :
- تعال الى بيتى ..
- تسكنين وحدك ؟
- شارع نجم الدين وراء قرافة باب النصر ..
- رقمه ؟
- البيت الوحيد فى الشارع ، تحته وكالة خيش ، ووراءه القرافة ..
- ضحك سعيد قائلا :
- يا له من موقع فريد !

فجارته في ضحكته ثم قالت :

— لا يعرفني هناك أحد ، ولم يزرني فيه أحد ، ستكون أول رجل يدخله ، وشقتي في أعلى دور ..

وانتظرت كلمته ولكنه شغل بمراقبة الطريق الذي ضاق عرضه ما بين الجبل وبين البيوت ابتداء من مسكن الشيخ على الجنيدى ، ثم أوقف السيارة عند رأس الدراسة والتفت إليها قائلاً :

— هنا مكان مناسب لنزولك ..

— ألا تأتى معى ؟

— سأتى فيما بعد ..

— أين تذهب في هذه الساعة من الليل ؟

— اذهبى من فورك الى القسم ، واحكى لهم ما حدث بالحرف كأنك لم تشاركى فيه ، وأعطى لهم أوصافاً بعيدة عنى كل البعد ، أبيض سمين فى خده الأيمن أثر جرح قديم ، قولى أنى خطفتك وسرقتك واعتديت عليك ..

— اعتديت على ؟

فاستطرد جاداً رغم ملاحظتها :

— وأن ذلك كان فى صحراء زينهم ، وأنى قذفت بك خارجاً ثم هربت بالسيارة ..

— وهل تزورنى حقاً ؟

— نعم ، أعدك بهذا وعد رجل ، هل تحسنين التمثيل في
القسم كما فعلت في السيارة ؟
— ان شاء الله ..
— مع السلامة ..
ثم انطلق بالسيارة

الفصل السابع



قمة النجاح أن يقتلا معا ، نبوية وعليش . وما فوق ذلك .
أن يصفى الحساب مع رءوف علوان ، ثم الهرب ، الهرب الى
الخارج ان أمكن . ولكن من يبقى لسناء ؟ . الشوكة المنغرزة
في قلبي . أنت تندفع بأعصابك بلا عقل . عليك أن تنتظر طويلا
وتدبر أمرك ثم تنقض كالحدأة . الآن لا فائدة من الانتظار .

أنت مطارد . منذ علم بالافراج عنك وأنت مطارد . وبحادثة
السيارة ستشتد المطاردة . ومحفظة ابن صاحب المصنع لا تحوى
الا جنيهاً معدودات فهذا أيضا من سوء الحظ . ان لم
تضرب سريعا انهار كل شيء . ولكن من يبقى لسنا ؟ .
الشوكة المنغرزة فى قلبى . المحبوبة رغم انكارها لى . هل
أترك أمك الخائنة اكراما لك ؟ . أريد جوابا فى الحال . كان
يحوم حول البيت القائم على مفرق ثلاث عطفات بحارة سكن
الامام فى ظلمة حالكة ، والسيارة تنتظر فى نهاية الطريق من
ناحية ميدان القلعة . أغلقت الدكاكين وخلا الطريق ، وظاهر
أن أحدا لم يكن يتوقعه . فى هذه الساعة يأوى كل مخلوق الى
جحره . لا ينتظر أن يدهمه أحد ليحاسبه . وربما أعد عدته
ولكنه — هو — لن ينشئ عن عزمه . ولو عاشت سناء وحيدة
العمر كله . ذلك أن الخيانة بشعة جداً يا أستاذ رءوف . وتطلع
الى نوافذ البيت ويده قابضة على مسدسه فى جيبه . الخيانة بشعة
يا عlish . ولكى تصفو الحياة للأحياء يجب اقتلاع الخبائث
الاجرامية من جذورها . واقترب من باب البيت ملاصقا للجدار
ثم دخل . وصعد السلم فى حذر شديد . وظلام دامس مارا
بالدور الأول فالثانى ثم الثالث . ها هو الباب المغلق على أدنى
النوايا والشهوات . من سيفتح اذا طرق الباب ؟ . هل تجيء
نبوية ؟ . هل يكمن المخبر فى مكان ما ؟ . النار تنتظر المجرمين .
ولو اضطر الى اقتحام الشقة . لا بد أن يعمل ، وأن يعمل فى

الحال ، فحرام أن يتنفس عlish سدره يوما كاملا وسعيد
مهران طليق . وستفوز بالهرب سالما . كما فزت عشرات المرات .
وكما تتسلق العسارة في ثوان ، وكما تثب من الدور الثالث
فتصل الأرض سالما ، وكما تطير اذا شئت . وطرق الباب
يبدو ضروريا ولكنه سيثير الريب ، وبخاصة في هذه الساعة ،
وستصوت نبوية حتى تملأ الدنيا غبارا ، ويجيء الأندال ،
ويظهر المخبر أيضا . فلتحطم الشراعة . هذه هي الفكرة التي
كانت تدور في رأسه وهو قادم بالسيارة من بعيد ، ها هو يعود
اليها أخيرا . وأخرج مسدسه ، ووجه منه ضربة الى زجاج
الشراعة من خلال القضبان الملتوية فتحطم وتناثر محدثا صوتا
كالصراخ المبحوح في صمت الليل . اقترب من الباب حتى كاد
يلتصق به ، وصوب مسدسه الى الداخل ، وانتظر بقلب خافق
وعين غائصة في ظلمة الردهة . وترامى صوت يصيح « من ؟ » .
صوت رجل ، صوت عlish سدره ، ميّزه رغم نبض الصدغ
المدوّى . وفتح باب في الناحية اليسرى فخرج منه ضوء
خفيف ، ثم لاح شبح رجل يتقدم في حذر . ضغط سعيد على
الزناد فانطلقت الرصاصة كصرخة عفريت في الليل . وصرخ
الرجل بدوره وتهالوى فأدركه بأخرى قبل أن يستقر فوق
الأرض . وانطلق صراخ حاد مرتعب مستغيث بأس ، صوات
نبوية فصاح بها « سيأتي دورك ، لا مهرب مني ، أنا الشيطان
نفسه » . واستدار ليهرب ، ومضى يشب فوق الدرجات بلا

حرص حتى بلغ بشر السلم في ثوان . وقف تنتصت لحظة ثم مرق.
من الباب ، فسار على كتب من الجدار في هددوء . ثم سمع
نوافذ وهي تفتح وأصواتا وهي تتلاقى في تساؤل ونداءات
غامضة . وبلغ موقف السيارة عند رأس الطريق فجذب بابها
ودخل . وعند ذاك لمح شرطيا قادمًا يجري من الميدان نحو
عطفة سكة الامام فغاص في أرض السيارة . وواصل الشرطي
جريه نحو الصراخ فلبث في مكمنه حتى اطمأن الى بعده من
وقع قدميه ثم نهض في حذر شديد فجلس وراء عجلة القيادة
وانطلق بالسيارة دون ابطاء . ودار مع الميدان في سرعة طبيعية
والضجة تلاحق حواسه ، ولكنها استقرت في أعصابه حتى بعد
انقطاعها عن حواسه . ولفه ذهول شامل فساق السيارة بلا
وعى . القاتل . هناك رءوف علوان ، الخائن الرفيع الممتاز ،
أهم في الواقع من سدره وأخطر . القاتل ، ألت من زمرة القتلة ،
جنسية جديدة ، ومصير جديد ، خطف أرواح خبيثة بعد خطف
أشياء ثمينة . سيأتي دورك ، لا مهرب مني ، أنا الشيطان نفسه .
بفضل سناء وهبتك الحياة ، لكنى أحطتك بعقاب أشد من
الموت ، هو الخوف من الموت ، الذعر الأبدى ، لن تذوقى
للراحة طعما ما دمت حيا . انحدرت السيارة في شارع محمد
على وما زال يسوقها بلا وعى ولا فكرة عنده البتة عن المكان
الذي يقصده . الآن يردد كثيرون اسم القاتل ، فعلى القاتل أن
يختفى ، عليه أن يحذر ما أمكنه جبل المشنقة . لا تمكن

عشماوى من أن يسألك « ماذا تطلب ؟ » وعلى الحكومة أن
تجود بهذا السؤال فى مناسبة أفضل . واقتبه الى نفسه فاذا
بالسيارة تقطع آخر شوط فى شارع الجيش مندفعة نحو
العباسية فانزعج لهذه العودة الغريبة الى المكان الخطر .
وضاعف من سرعتها حتى بلغ منشية البكرى فى دقائق . ثم
وقف عند أول شارع متفرع من الطريق العام . وتركها فى
هدوء دون أن يلتفت يمينا أو يسرة . سار على مهل كأنه يتريض ،
وشعر بخمود ، ثم بألم كأنه رد فعل للمجهود العصبى الشديد
الذى بذله . لا مأوى لك الساعة . ولا أى ساعة . نور ؟ . من
المجازفة أن يذهب اليها الليلة بالذات ، ليلة التحقيق والشبهات .
والظلام يجب أن يمتد الى الأبد ..

الفصل الثامن

دفع باب مسكن الشيخ فأطاع دون مقاومة ، ثم دخل ورده وراءه . وجد نفسه في الحوش غير المسقوف ، ولاحظ النخلة فارعة كأنها ممتدة في الفضاء حتى النجوم الساهرة ، فقال لنفسه يا له من مكان صالح للاختفاء ! . وحجرة الشيخ مفتوحة بالليل كما هي بالنهار وغارقة في الظلمة وكأنها تنتظر أوبته فمضى إليها في هدوء . سمع الصوت يغمغم فلم يميز من غمغمته الا « الله » . واستمر يغمغم كأنه لم يشعر أولا يريد أن يشعر بدخوله . انزوى في ركن باليسار جنب كتبه ، وانحط على الحصيرة ببدلته وحذائه المطاط ومسدسه ، ثم مد ساقيه واستند الى ذراعيه ملقيا برأسه الى الوراء في اعياء شديد . رأس كخلية النحل ، وأين المفر ؟ . تريد أن تستعيد سماع الطلق الناري ، وصوات نبوية ، وأن تسعد بأنك لم تسمع لثناء صرخة واحدة . ويحسن أن تقول للشيخ « السلام عليكم » ، ولكن نبرات صوتك عاجزة . عجز مفاجيء كالغرق . وكنت تظن أنك ستموت نوما بمجرد أن يمس جلدك الأرض ! . تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم

الى ذكر الله ، متى ينام هذا الرجل الغريب ؟ . لكن الرجل
الغريب ترنم بصوت مرتفع نوعا لأول مرة :

الوجد عندى جحود ما لم يكن عن شهودى
ثم قال بصوت خيل اليه أنه ملأ الحجرة « انفتحت عيون
قلوبهم وانطبعت عيون رؤوسهم » . اتزع من آلامه ابتسامة
وقال لنفسه : لذلك فهو لا يشعر بى . ولكنى أنا أيضا لا أشعر
بنفسى . وبغته سبح الأذان فوق أمواج الليل الهادئة . وذكر
ليلة قضاها مسهدا حتى الأذان شوقا الى سعادة موعودة فى
التهار التالى لم يعد يذكر عنها شيئا . ونهض عند سماعه الأذان
هائنا بالخلاص من رقاد أليم فتطلع من النافذة الى زرقة الفجر
وابتسامة المشرق وفرك يديه جبورا بالسعادة الوشيكة التى لم
يعد يذكر عنها شيئا . لذلك فهو يحب الفجر للنغمة والزرقة
والابتسامة والسعادة المنسية . وها هو الفجر مرة أخرى ولكنه
من الإعياء لا يستطيع حراكا ولا مسدسه . وقام الشيخ للصلاة
فأشعل المصباح ، ولم يبد اتبهاها لوجوده . وفرش سجادة
الصلاة واتخذ مكانه فوقها واذا به يتساءل :

— ألا تصلى الفجر ؟

— فلم يستطع جوابا ، الى هذا الحد بلغ منه الإعياء . وأقام
الشيخ الصلاة ، وما لبث سعيده أن غاب عن الوجود . حلم بأنه
يجلد فى السجن رغم حسن سلوكه . وصرخ بلا كبرياء وبلا
مقاومة فى ذات الوقت . وحلم بأنهم عقب الجلد مباشرة سقوه

حليبا . ورأى سناء الصغيرة تنهال بالسوط على رءوف علوان
في بئر السلم . وسمع قرآنا يتلى فأيقن أن شخصا قد مات .
ورأى نفسه في سيارة مطاردة عاجزة عن الانطلاق السريع لخلل
طارىء في محركها واضطر الى اطلاق النار في الجهات الأربع ،
ولكن رءوف علوان برز فجأة من الراديو المركب في السيارة
فقبض على معصمه قبل أن يتمكن من قتله وشد عليه بقوة
حتى خطف منه المسدس ، عند ذاك هتف سعيد مهران : اقتلنى
إذا شئت ولكن ابنتى بريئة ، لم تكن هى التى جلدتك بالسوط
في بئر السلم وانما أمها ، أمها نبوية وبايعاز من عlish سدره ،
ثم اندس في حلقة الذكر التى يتوسطها الشيخ على الجنيدى
كى يغيب عن أعين مطارديه فأنكره الشيخ وسأله : من أنت
وكيف وجدت بيننا فأجابه بأنه سعيد مهران ابن عم مهران
مريده القديم وذكره بالنخلة والدوم والأيام الجميلة الماضية ،
فطالبه الشيخ ببطاقة الشخصية فعجب سعيد وقال ان المريد
ليس في حاجة الى بطاقة ، وانه في المذهب يستوى المستقيم
والخاطئ فقال له الشيخ انه يطالبه بالبطاقة ليتأكد من أنه من
الخاطئين لأنه لا يجب المستقيمين فقدم له مسدسه وقال له ثمة
قتيل وراء كل رصاصة ناقصة في ماسورته ولكن الشيخ أصر
على مطالبته بالبطاقة قائلا ان تعليمات الحكومة لا تتساهل في
ذلك فعجب سعيد مرة أخرى وتساءل عن معنى تدخل الحكومة
في المذهب فقال الشيخ ان ذلك كله تم بناء على اقتراح للأستاذ

الكبير رءوف علوان المرشح لوظيفة شيخ المشايخ فعجب سعيد للمرة الثالثة وقال ان رءوف بكل بساطة خائن ولا يفكر الا في الجريمة فقال الشيخ انه لذلك رشح للوظيفة الخطيرة ووعد بتقديم تفسير جديد للقرآن الشريف يتضمن كافة الاحتمالات التي يستفيد منها أى شخص في الدنيا تبعا لقدرته الشرائية ، وأن حصيلة ذلك من الأموال ستستغل في انشاء نواد للسلاح ونواد للصيد ونواد للاقتحار فقال سعيد : انه مستعد أن يعمل أميناً للصندوق في ادارة التفسير الجديد وسيسشهد رءوف علوان بأمانته كما ينبغي له مع تلميذ قديم من أنبه تلاميذه ، وعند ذاك قرأ الشيخ صورة الفتح وعلقت المصاييح بجذع النخلة وهتف المنشد يا آل مصر هنيئاً فالحسين لكم ..

وفتح عينيه فرأى الدنيا حمراء ولا شىء فيها ولا معنى لها ثم رأى الشيخ متربعا في هدوء يكتنفه البياض الناصع من الجلباب الفضفاض والطاقيّة واللحية ، فلما نادت عن سعيد حركة لدى استيقاظه نظر الشيخ اليه في هدوء أيضا . وجلس سعيد في عجلة ورنا الى الشيخ كالمعتذر ، وفي الوقت نفسه دهشته الذكريات في سرعة اللهب . وقال الشيخ :

— نحن في العصر وأنت لم تذق طعاما ..

نظر سعيد الى الكوة ثم أعاد الى الشيخ النظر وهو يتمنم في ذهول :

— العصر !

— نعم ، قلت أدعه في نومه ، وهداية الله تنزل في أى حان تريدها مشيئته ..

وداخله القلق ، ترى ألم يره أحد في نومه طوال النهار ؟
— كنت أشعر في نومي بدخول أناس كثيرين ..
— أنت لم تشعر بشيء ، ومع ذلك فقد جاء واحد بلقمة الغداء ، وجاء آخر فكنس المكان وسقى الصبارة والنخلة وفرش الحوش استعدادا لاستقبال المحبين !

فسأل باهتمام :

— متى يجيئون يا مولاي ؟

— مع المغرب ، متى جئت أنت ؟

— مع الفجر ..

وصمت مليا ، ثم مسح الشيخ على لحيته وقال :

— أنت تعيس جدا يا بنى !

فتساءل في قلق :

— له ؟

— نمت نوما طويلا ولكنك لا تعرف الراحة ، كطفل ملفى تحت نار الشمس ، وقلبك المحترق يحن الى الظل ولكن يمعن في السير تحت قذائف الشمس ، ألم تتعلم المشى بعد ؟ !

فقال سعيد وهو يدعك عينيه اللوزيتين المحمرتين :

— فكرة مزعجة أن يراك الآخرون وأنت نائم ..

فقال الشيخ بلا اكتراث :

— من غاب عن الأشياء غابت الأشياء عنه ..

ومر بيده بخفة فوق جيب المسدس وساءل نفسه ترى ماذا يصنع هذا الشيخ لو أنه صوب نحوه مسدسه ؟ . متى يمكن أن يهتز هدوءه المثير ؟ . وعاد الشيخ يسأله :
— أنت جائع ؟

— كلا .

فقال وشبه ابتسامة تلوح في عينيه :
— اذا صح الافتقار الى الله صح الغنى بالله ..
— اذا !

ثم بلهجة ساخرة :

— مولاي ، ماذا كنت تفعل لو ابتليت بمثل زوجتي ولو أنكرتك كما أنكرتني ابنتي ؟

فلاحت في العينين الصافيتين نظرة رثاء وقال :
— العبد لله لا يملكه مع الله سبب ..

اقطع لسانك قبل أن يخونك ويعترف . أنت تود أن تعترف له بكل شيء . ولعله ليس في حاجة الى ذلك ، لعله رآك وأنت تطلق النار ، لعله يرى أكثر من ذلك . وارتفع صوت تحت الكوة ينادى بجريدة أبو الهول فقام بسرعة الى الكوة فناداه ثم مَدَّ يده بالقرش وعاد بالجريدة الى مجلسه وقد نسي الشيخ تماما . التصقت عيناه بعنوان ضخيم أسود « جريمة شنيعة بالقلعة ! » وجرت عيناه على الأسطر بسرعة جنونية . ولم يفهم

شيئا . أهى جريمة أخرى ؟ . لكن ها هى صورته ، ها هى صورة نبوية ، ها هى صورة عlish سدره . فمن المخرج فى دمه ؟ . قصته بارزة أمام عينيه ، فضيحة مذاعة كالغبار الخماسينى ، الرجل الذى خرج من السجن ليجد امرأته زوجة لأحد أتباعه ، ولكن من المخرج فى دمه ؟ . انه لا يفهم شيئا وينبغى أن يقرأ من جديد . ينبغى أن يعرف من المخرج فى دمه وكيف استقرت رصاصته فى صدره . القتل رجل آخر يرى صورته لأول مرة فى حياته . اقرأ من جديد . لقد ترك عlish سدره ونبوية بيتهما فى نفس اليوم الذى زارهما فيه بحضور المخبر والأعوان ، وحلت مكانهما فى الشقة أسرة جديدة ، ولعلها دفعت خلو رجل . الصوت الذى سمعه لم يكن صوت عlish سدره . الصوت الذى سمعه لم يكن صوت نبوية ، الجسم الذى سقط كان جسم شعبان حسين العامل بمحل الخردوات بشارع محمد على . سعيد مهران جاء ليقول زوجته وصاحبه القديم فقتل الساكن الجديد شعبان حسين . وشهد أحد جيران عlish بأنه رأى سعيد مهران وهو يغادر البيت عقب ارتكاب الجريمة وأنه نادى الشرطى ولكن صوته ضاع فى الضجة التى شملت الطريق كله . أى هزيمة جنونية ، أى جريمة بلا جدوى ، وسيطارده جبل المشنقة وElish آمن ، هذه هى الحقيقة كأنها جوف قبر انكشف . وانتزع عينيه من الجريدة فرأى الشيخ على الجنيدى ينظر الى السماء من خلال الكوة ويتسم . ولسبب ما



أخافته ابتسامته . ورغب فى أن يقف أمام الكوة ليمد بصره فى
خط نظر الشيخ لعله يرى فى السماء ما جعله يبتسم . لكنه لم
ينفذ رغبته . ليبتسم وليطلع على مكنونه اذا شاء ولكن
سيجىء المريدون عما قريب وربما تعرف عليه بعضهم ممن رأوا
صورته فى الجريدة . آلاف وآلاف يتأملون صورته الآن بغرابة
وخوف ولذة بهيمية خفية . قضى عليه بلا جدوى ، مطارداً
وسيطر مطارداً الى آخر لحظة من حياته ، وحيد عليه أن يحد
حتى صورته فى المرأة ، حتى بلا حياة كجثة محنطة ، سيجرى
من جحر الى جحر كفأر يتهده السهم والقنط وهراوات
المشمزين ، كل هذا وأعداؤه يمرحون . والتفت الشيخ نحوه
وقال برقة :

— أنت متعب ، قم فاغسل وجهك ..

فقال بضيق وهو يطوى الجريدة :

— سأذهب وأريحك من منظرى ..

فقال فى مزيد من الرقة :

— هذا مأواك ..

— نعم ، ولكن لم لا يكون لى مأوى آخر ؟

فقال وهو يطرق :

— لو كان لك آخر ما جئتنى !

اذهب الى الجبل حتى يهبط الظلام . لا تغادره حتى يهبط
الظلام . تحاش الضوء ولد بالظلام . تعب بلا فائدة . ذلك أنك

قتلت شعبان حسين . من أنت يا شعبان ؟ . أنا لا أعرفك وأنت لا تعرفنى . هل لك أطفال ؟ . هل تصورت يوما أن يقتلك انسان لا تعرفه ولا يعرفك . هل تصورت أن تقتل بلا سبب ؟ . أن تقتل لأن نبوية سليمان تزوجت من عيش سدره ؟ ، وأن تقتل خطأ ولا يقتل عيش أو نبوية أو رءوف صوابا ؟ وأنا القاتل لا أفهم شيئا ولا الشيخ على الجنيدى نفسه يستطيع أن يفهم . أردت أن أحل جانبا من اللغز فكشفت عن لغز أغمض . وتنهد بصوت مسموع ، وعاد الشيخ يقول :

— يا لك من متعَب !

— ودنياك هي المتعبة .

فقال الشيخ فى رضى :

— تتغنى بهذا أحيانا .

ونهمض ، ثم قال وهو يهم بالذهاب :

— وداعا يا مولاي ..

فقال الشيخ كالمحتج :

— قول لا معنى له على أى وجه قلته ، قل الى اللقاء ...

الفصل التاسع



يا له من ظلام ! . انقلب خفاشا فهو أصلح لك . وهذه
الرائحة الدهنية المتسربة من باب شقة ما في هذه الساعة من
الليل ! . متى تعود نور وهل تعود بمفردها ؟ . هل يمكن أن أبقى
في بيتها حتى أنسى ؟ . لعلك تظن يا رءوف أنك تخلصت مني
إلى الأبد ؟ . بهذا المسدس أستطيع أن أصنع أشياء جميلة على

شرط ألا يعاكسنى القدر . وبه أيضا أستطيع أن أوقف النيام
فهم أصل البلايا . هم خلقوا نبوية وعليش ورءوف علوان ..
وخيل اليه أنه سمع وقع أقدام صاعدة ، ثم تأكد من ذلك .
ونظر من فوق الدرايزين . فرأى نورا خافتا يتحرك فى بطن
على الجدران ، نور عود ثقاب كما ظن . واقتربت الأقدام ثقيلة
متمهلة فقرر أن ينبهها الى وجوده تفاديا من مفاجأة مزعجة .
وتنحنح فجاء صوتها يسأل فى ارتياح :

— من ؟

فأدلى برأسه الى أقصى حد ممكن وقال هامسا :

— سعيد مهران ..

وأسرعت الأقدام فى خفة حتى انتهت الى مكانه وهى تلهث
والعود يلفظ أنفاسه . وقبضت على عضده فى انفعال ، وبسرة
تنازعها الابتهاج وتقطع الأنفاس قالت :

— أنت ! .. ، يا كسوفى .. ، انتظرت طويلا .. ؟

وفتحت الشقة ثم دخلت جاذبة اياه من ذراعه . وأضاءت
مصباحا فظهر مدخل مستطيل صغير خال من أى شىء . ومالت
به الى حجرة جانبية كشف مصباحها الكهربائى عن حجمها
المتوسط وأضلعها المربعة ، ثم سارعت الى النافذة ففتحتها على
مصراعيها لتلطف من جوها المخثق . وارتقى على احدى الكنبتين
المتقابلتين وهو يقول متشكيا :

— جئت عند منتصف الليل ، ولبثت أتنظر حتى شاب

شعري ..

فجلست على الكنبه الأخرى بعد أن أزاحت عنها أقمشة
مفصلة وكوماً من القصاصات، وقالت :

— الحق أنه لم يكن عندي أدنى أمل في أنك ستجىء ..
وتلاقت الأعين المتعبة ، فابتسم لىسدارى تحجر باطنه ،
وتساءل :

— حتى بعد وعدى الصريح ؟ !

فابتسمت ابتسامه خفيفة ولم تجب ، لكنها قالت :
— أمس استجوبونى فى القسم حتى أزهدقوا روحى ، أين
السيارة ؟

فقال وهو يخلع چاكتته ويرمى بها الى جانبه كاشفا عن
قميص طحينى متلبد بالعرق والغبار .

— قضت الحكمة بأن أتركها رغم حاجتى اليها ، سيجدونها
ويردونها الى صاحبها كما ينبغى لحكومة تتحيز لبعض اللصوص
دون البعض !

فسأله فى قلق :

— ماذا فعلت بها أمس ؟

— لا شىء البتة فى الحقيقة ، وسستعلمين كل شىء فى

حينه ..

ونظر نحو النافذة وهو يتنفس فى عمق قائلاً :

— جهة بحرية فيما أظن ، هواء لطيف حقا ..

— خلاء حتى باب النصر ، هنا القرافة ..

فابتسم قائلاً :

— لذلك فهو أَوْها غير فاسد !

تنظر اليك بنهم ، وأنت تمتعض ضجرا . وبدل العزاء تتذكر
طعنة في الكبرياء . وقالت نور راجعة الى أفكارها الأولى :

— انتظرت طويلا على السلم ، أنا آسفة جدا ..

فامتحنها بنظرة غامضة وهو يقول :

— سأنزل ضيفا عندك لأجل طويل ..

فارتفع رأسها ابتهاجا وهي تقول :

— امكث طول العمر ان شئت ..

فأوماً الى النافذة وهو يقول باسمها :

— حتى أتتقل الى الجيران !

وبدا أنها لم تسمعه لتفكير لاح في عينيها ثم تساءلت :

— وأهلك ألا يسألون عنك ؟

فأجاب وهو ينظر الى حذائه المطاط :

— لا أهل لى ..

— أعنى زوجتك ؟

تعنى الألم والجنون والرصاص الضائع . تريد اعترافا مؤذيا
للكرامة . وستجد أن فتح القلب المغلق يزداد عسرا . ولكن
ما جدوى الكذب والجرائد تنعق بالفضيحة ؟

— قلت لا أهل لى ..

أنت تفكرين فى معنى القول . ويشرق وجهك بالسرور .
وأنا أكره هذا السرور . وأرى الآن أن الذبول استقر تحت
عينيك . وتساءلت :

— الطلاق ؟

لوح فى ضجر قائلا :

— طلقت وأنا فى السجن ، ولندع هذا الحديث جانبا .

فقلت بغضب :

— خنزيرة ! ، مثلك يَنتظر ولو حكم عليه بتأييده !
الماكرة . مثلى لا يحب الرثاء . احذرى الرثاء . يا ضيعة
الرصاص فى الصدور البريئة !

— الحق أنى أهملتها كثيرا !

— على أى حال هى امرأة لا تستحقك ! .

صدقت . ولا أى امرأة . لكنها مفعمة حيوية وأنت تترنحين
فوق الهاوية . نفخة واحدة ثم تنطفئ . وما لك فى قلبى سوى
الرثاء ، وقال :

— لا يجوز أن يشعر بى أحد !

فقلت ضاحكة وكأنها وثقت من امتلاكه الى الأبد :

— أحطك فى عينى واكحل عليك !

ثم برجاء :

— هل فعلت شيئا خطيرا ؟

هز منكبيه باستهانة ، فقامت وهي تقول :
— سأعد لك مائدة ، عندي طعام وشراب ، أتذكر كم كنت
جافاً معي في الماضي ؟

— لم يكن عندي وقت للحب ..
فلحظته بعتاب وهي تقول :
— وهل يوجد ما هو أهم منه ؟ .. وكنت أقول لنفسي
لعل قلبه حجر ، ومع ذلك فلم يحزن أحد على سجنك كما
حزنت ..

— لذلك لجأت إليك أنت !
فقلت بامتعاض :
— أنت لم تقابلني الا صدفه ، ولعلك كنت نسيتهى تماما ..
فقطب عمدا وهو يتساءل :

— أتظنين أنى لا أستطيع أن أجد مكانا آخر ؟
فأشفقت من غضبه ، وأقبلت عليه فأحاطت خديه براحتيها
وهي تقول معتذرة :

— نسيت أن العسكرى يمنع زوار الحديقة من معاكسة
الأسد ، آسفة ، ولكن ما أسخن وجهك ، وذقنك خشنة جدا ،
ما رأيك فى دش بارد ؟ !
فأعرب عن ترحيبه بابتسامة :

— الى الحمام ، وعندما تخرج ستجد المائدة معدة ، سناكل
فى حجرة النوم فهى أجمل من هذه الحجرة وتطل مثلها على
القرافة ..

الفصل العاشر

يا للعدد العديد من المقابر . الأرض تمتد بها حتى الأفق .
رافعة أيديها في تسليم وان يكن شيء لا يمكن أن يهددها .
مدينة الصمت والحقيقة . ملتقى النجاح والفشل والقاتل
والقتيل . مجمع اللصوص والشرطة حيث يرقدون جنبا الى
جنب في سلام لأول وآخر مرة . وشخير نور يبدو أنه لن ينقطع
الا حين تستيقظ عند الأصيل . وستبقى أنت في هذا السجن
حتى ينسلك البوليس ، ولكن هل ينسلك البوليس حقا ؟ .
ويقدر ما يخون الموت الأحياء فستذكر بالقبور الخيانة ثم تذكر
بالخيانة نبوية وعليش ورءوف . وأنت نفسك ميت منذ اطلقت
الرصاصه العمياء ، ولكن عليك أن تطلق مزيدا من الرصاص .
وسمع ثأؤبا كالتأوه فتراجع عن شيش النافذة ملتفتا نحو
الفراش فرأى نور جالسة ، شبه عارية ، منكوشة الشعر تعيسة
القسمات . نظرت اليه بارتياح وهي تقول :

.. حلمت أنك بعيد وأنتى أنتظر كالمجنونة ...

فقال في كآبة :

— هذا في الحلم ، أما في الحقيقة فأنت التى ستذهبين بعيدا

وأنا الذى سأنتظر ..

وذهبت الى الحمام ثم عادت وهي تجفف رأسها ووجهها
وتابع يديها وهما تصوران وجهها في صورة جديدة ، بهيجة
شابة . هي — مثله — في الثلاثين ولكنها تكذب علنا لتبدو
أصغر ، وسخافات ورذائل لا حصر لها تمارس علنا ، ليست
السرقه كذلك ويا للأسف . وأوصلها حتى الباب وهو يقول :

— لا تنسى الجرائد ..

ومضى الى حجرة الجلوس فاستلقى على كنبه . وحيد بكل
معنى الكلمة حتى كتبه منسية عند الشيخ على الجنيدى ،
وتسلى بالنظر الى السقف الأبيض الباهت المعروق وكأنه مرآة
تعكس بساط الحجرة المنجرد . ومن خلال النافذة بدت سماء
المغيب كدرة يدور بها سرب من الحمام من آن لآن .
وجفولك يا سناء مؤلم حقا كمنظر القبر . ولا أدري ان كنا
سنلتقى مرة أخرى ، أين ومتى . ولن يخفق قلبك بحبى ن
هذه الحياة المليئة بالرصاصات الطائشة . وكالرصاص تطيش
رغائب كثيرة فى الدنيا مخلفة وراءها سلسلة من الحلقات
المحزنة . ابتداء من الحلقة الأولى عند بيت الطلبة فى طريق
مديرية الجيزة . لم يكن عيش سدره الا شخصا عابرا لا قيمة
له أما نبوية فقد هزت القلب حتى اقتلعتة من جذوره . ولورأن
الحياة الكامنة ظهرت فى صفحة الوجه كما تظهر آثار الحميات
الحبيثة لما تجلى جمال فى غير موضعه ولأعفيت قلوب كثيرة من
عبث المكائد . والبقال يقع دكانه أمام بيت الطلبة وتجيء نبوية

حاملة السلطانية لتشتري ما تشاء في ثياب مهندمة بل تعد زينة
وسط أمثالها من الخادومات لذلك عرفت بخادمة الست التركية
نسبة الى تركية عجوز كانت تقيم بمفردها في بيت محاط بحديقة
كبيرة في آخر الطريق وكانت غنية ومتكبرة وتفرض على كل
من يمت اليها بسبب أن يكون جميلا وأنيقا ونظيفا فتبذت نبوية
دائما ممشطة الشعر مناسبة الضفيرة حتى العجز منتعلة شبشبا
يطوق جلبابها حيوية جسد ثائر وحتى الأعين غير المسحورة أى
أعين الآخرين وصفت جمالها بأنه جمال فلاحى لذيد الطعم
باستدارة الوجه الخمرى والعينين العسليتين والألف القصير
الممتلىء والفم المشرب بماء الحياة والدقة الخضراء في الذقن
كالخال وكان يقف عند باب بيت الطلبة عند الانتهاء من الخدمة
ينظر نحو آخر الطريق الذى تجيء منه حتى تلوح لعينيه القامة
البديعة والمشية الحبيبة وتقرب وتقرب باعثة باقترابها أجمل
مشاعر الحياة كأنها موسيقى عذبة تستقبل بها حيث حلت
وتتبعها عيناك في نشوة الخمر وتندس معها بين عشرات الواقفات
أمام البقال وتغيب حيناً وتظهر حيناً وأنت تزداد غراماً وسؤالا
ورغبة في عمل شئ أى شئ ولو كلمة أو إشارة أو تعويذة وتمضى
هى أخيرا في طريق العودة منذرة بالاختفاء بقية نهار وليلة كاملة
فتصعد منك تنهيدة مريرة وتبوح النشوة رويداً وتخرس
العصافير فوق أشجار الطريق وينتشر جو الخريف فجأة ثم مرة
تلاحظ أن عودها يمس تحت نظراتك وأنها تنيه دلالة فلا تقف

أنت عند حد وباندفاعك الطبيعي تسبقها في الطريق ثم تعترض
سبيلها عند النخلة الوحيدة القائمة في نهاية الحقول بجرأة غريبة
تعترض سبيلها حتى ذهلت أو تظاهرت بالذهول وسألتك
محتجة من أنت فأجبت بدهشة من أنا أنت تسألين من أنا ألا
تعرفين من أنا أنا صاحب العين التي يعرفها كل شبر في كائنك
فقلت بحدة أنا لا أحب قلة الأدب فقلت ولا أنا أنا مثلك لا
أحب قلة الأدب وعلى العكس أحب الأدب والجمال والرقعة وكل
أولئك هو أنت أنت ألا تعرفين الآن من أنا ولا بد أن أحمل
عك هذه السلة وأوصلك حتى باب البيت فقلت لست في
حاجة الى مساعدتك ولا تقف في طريقى مرة أخرى وسارت
فسرت الى جانبها متشجعا بابتسامة خفية ضاعت في الاكفهرار
المصطنع أحسست بها كما تحس بأول نسمة رقيقة متسللة في
ليلة زامنة فقلت ارجع يجب أن ترجع ستى تجلس في النافذة
وستراك اذا تقدمت أكثر من هذا خطوة واحدة قلت أنا عنيد
واذا أردت أن أرجع فلنرجع معا بضع خطوات ليس الا عند
نخلتنا الوحيدة اذ لا بد أن أتكلم ولماذا لا أتكلم هل أنا لا أما
العين وهزت رأسها في عنف ولكنها أبطأت السير وغمغمت في
احتجاج وغضب ولكنها أبطأت في السير وتقوس عنقها كالقطة
المتنمرة ولكنها أبطأت في السير فلم أعد أشك في أنى وصلت
وأن نبوية لا تخلو من بعض مشاعري وأنها مطلعة تماما على تاريخ
وقفاتي. التهديدية عند بيت الطلبة وأن نظرات الطريق ستتحوّل



الى أمور لها خطرها في حياتي وحياتها وحياة الدنيا جميعا التي
ستزداد بها عدا فقلت الى غد وتوقفت خشية عليها من لدع لسان
تركي عجوز يقيم في شارع مديريتنا كاللغز ثم تراجعت الى النخلة
ومن فرحتي تسليقتها بسرعة قرد وقفزت من علو ثلاثة أمتار الى
أرض مزروعة جرجيرا ثم رجعت الى بيت الطلبة وأنا أغنى
بصوتي الغليظ كأني ثور هزه الطرب وعندما دفعتك ظروف
قهريّة الى العمل في شرك الزيّات مضت بك الحياة من حي الى
حي ومن بلدة الى بلدة وخفت أن يصدق عليك المثل القائل
ان البعيد عن العين بعيد عن القلب فقلت لها لتزوج لتزوج
على سنة الله ورسوله وأتتما تقفان عند مشارف الجامعة التي
لم تدخلها ظلما ودخلها كثير من الأغبياء ولم يكن في الطريق
ضوء ولا في السماء الا هلال غليظ استقر فوق الأفق وابتهجت
ونظرت الى الأرض حتى لمع جبينها الضيق تحت شعاع الهلال
فقلت ان عملي مربح ومستقبلي هائل ومسكني في الدراسة
دور أرضي نظيف بطريق الجبل على مقربة من مسكن الشيخ
على الجنيدى وستعرفين الشيخ المبارك عندما تتزوج ويجب أن
تتزوج في أقرب وقت اكراما لحبنا طويل العمر وآن لك أن
تتركي ستك العجوز فقالت أنا يتيمة وليس لى الا عمّة بسيدى
الأربعين فقلت على بركة الله وقبلتها أمام الهلال والفرح من
جماله عاش أحسنوثة على كل لسان والزيّات تقطنى بعشرة
جنيّات وعليش سدرّة من سروره بدا كأنه صاحب الفرح

ولعب دور الصديق الأمين ولكن لم يكن صديقا على الإطلاق
وأعجب شيء أنى خدعت به وأنا الذكى الذى يخافه الجن
الأحمر كنت البطل وكان عابد البطل يحبنى ويتملقنى ويتجنب
غضبى ويلتقط فتات العيش من كدى وشطارتى وآمنت بأننى
لو أرسلته مع نبوية الى الصحراء التى تاه فيها سيدنا موسى
لظل يرانى قائما بينه وبين نبوية فلا يحيد عن الأدب وهى كيف
تميل الى الكلب وتعرض عن الأسد ولكن القذارة مركبة فى
طبعها قذارة تستحق القتل فى الدنيا وفى الآخرة وعلى شرط ألا
يطيش الرصاص الأعمى فيصيب الأبرياء ويعمى عن الأوغاد
والسفلة ويترك قلوبا يمزقها- الألم ويحرقها الغضب ويعبث بها
الجنون فتنسى كل شيء طيب فى الحياة حتى ليلة الدخلة ولعب
الصبيان فى الحارة والحب قبل الفساد ومولد سناء ورؤية وجه
سناء لأول مرة وسماع بكائها لأول مرة وحملها على الساعدين
لأول مرة وابتسامتها التى لم أحصها وليتنى أحصيتها أو صورتها
وليتنى أنسى فيما نسيت جفولها وصراخها الذى رددته أركان
الأرض وجفت بسببه الينابيع والنسائم وكافة المشاعر الطيبة فى
الوجود . وانتشر الظلام نعم انتشر الظلام فى الحجرة وخارج
النافذة وزاد صمت القبور صمتا ولا يمكن أن تضىء المصباح كى
تبقى الشقة كما تبقى عادة فى أثناء غياب نور وستألف عيناك
الظلام كما ألفت السجن وكما ألفت الوجوه الكريهة ولن تجد
فرصة للسكر خشية أن تحدث حركة عنيفة أو ترفع صوتا منكرا

اذ يجب أن تبقى الشقة صامته كالقبر وحتى الأموات أنفسهم
لن يفطنوا لوجودك هنا والله وحده يعلم كيف تصبر على هذا
السجن والى متى كما كان يعلم وحده أنك ستقتل شعبان
حسين لا عيش سدره ولا يد أن تخرج عاجلا أو آجلا للتجول
فى الليل ولو فى الأماكن الآمنة ولكن فلنؤجل ذلك الى حين
حتى يقتل البوليس تعباً فى البحث عن لا شىء ولنسأل الله ألا
يدفن شعبان حسين فى قبر من هذه القبور فان هذه المنطقة
القديمة لا تتحمل ثقل المفارقات القاسية واصبر اصبر حتى تعود
نور ولا تسأل متى تعود نور وعليك أن تكابد الظلمة والصمت
والوحدة ما دامت الدنيا لا تريد أن تغير من عاداتها السيئة
ونور المسكينة كذلك فحبها القديم لك ما هو الا عادة سيئة
وهو يرتطم بقلب قتله الألم والغضب وينفر من اقبالها كما ينفر
من ذبولها ولا يدري حقا ماذا هو فاعل بها الا أن يشاربها نخب
الضياع والأسى ويرثى لمحاولاتها الطيبة اليائسة ولن ينسى فى
النهاية انها امرأة كما أن نبوية امرأة الخائنة الجبانة سيقتلها
الخوف على حياتها حتى يلتف الحبل حول عنقك أو تستقر فى
قلبك رصاصة مجرمة ويشوه البوليس سيرتك فينقطع ما بينك
وبين سناء الى الأبد حتى حبك لن تدري عن صدقه شيئا كأنه
رحمنا طائشة وكذلك ..

واختلس النوم سعيد مهران وحلم بعض الوقت ولم يدرك
أنه كان يعلم الا عند يقظته ، عند وعيه لوجوده فى الظلام

والوحدة بشقة نور بشارع نجم الدين وتأكد من أن عيش
سدره لم يفاجئه في مخبئه ولم يطلق عليه الرصاص تباعا . ولم
يدر عن الوقت شيئا سرعان ما سمع همس المفتاح في القفل
وصفقة الباب وهو يغلق وشراعة باب الحجرة وهي تنضح بضوء
المدخل . وظهرت نور باسمه حاملة لفة كبيرة فأقبلت عليه تقبله
وهي تقول :

— وليمة ! ، معى العجائى وتسباس وما نولى !
فقبلها متسائلا :

— شارية ؟

— لزوم العمل ، سأستحم ثم أرجع ، واليك الجرائد ..
وتابعها بعينه حتى ذهبت ثم انهمك في مراجعة الجرائد
الصباحية والمسائية على السواء . لم يكن فيها جديد بالنسبة
اليه ولكن ثمة اهتمام بالجريمة والمجرم فاق ما كان يتوقعه
وبخاصة ما نشر في جريدة الزهرة ، جريدة رءوف علوان .
كتبت الجريدة فى اسهاب مثير عن تاريخه فى اللصوصية ،
وسلسلة المغامرات التى كشفت عنها محاكمته ، وقصور الأغنياء
التي سطا عليها ، وعن شخصيته ، وجنونه الخفى ، وجرائمه
الاجرامية التي اقتصت الى سفك الدماء . يا للعناوين الكبيرة
السوداء . آلاف وآلاف يناقشون الساعة جرائمه ويتندرون
بخيانه نبوية له ويتراهنون على مصيره . انه محور الأخبار
ورجل الساعة وقلبه ينقبض لذلك خوفا وزهوا . الاتفعال يكاد

يمزق عروقه وعشرات الأفكار تتزاحم في رأسه في اللحظة
الواحدة وتيار مثل تيار الخمر يغمر خياله فيؤمن بأنه سيتمخض
عن أمر خطير لا يقل شأنًا عن الخلق أو النصر ، فيود لو يتصل
بالناس ليحرب لهم عما يهز صدره في الصمت والوحدة ، وليؤكد
لهم بأنه سينتصر ولو بعد الموت . انه وحيد حيال الجميع
ولكنهم لا يعلمون ، لم يفقهوا بعد حديث الصمت والوحدة ،
ولا يفطنون الى أنهم أيضا لهم حديث صمت ووحدة ، والمرآة
التي تعكس صورهم باهتة مضللة فيتوهمون أنهم يرون قوما
غرباء . وثبتت عيناه على صورة سناء في دهشة وتأثر . وجرى
بصره على الصور جميعا ، صورته الوحشية وصورة نبوية التي
بدت كامرأة ساقطة ، ثم عاد الى سناء المبتسمة . أجل انها
تبتسم ، لأنها لا تراه ولأنها لا تدري شيئا . وتفحصها بكل قوة
ورغبة فدهمه شعور بأنه عبث وأن الليل خارج النافذة يتنفس
حزنا أصيلا . وتغنى في يأسه لو يستطيع الهرب بها الى مكان
لا يعرفه أحد . وأن يراها ولو كآخر طلب له في الدنيا قبل
الشنق . . وقام الى الكنية الأخرى ليلتقط المقص من بين
قصاصات القماش المكومة ثم عاد ليقطع الصورة بعناية من
الجريدة . ولما خرجت نور من الحمام كانت نفسه قد هدأت نوعا
ما ونادته من حجرة النوم فمضى اليها وهو يعجب كيف أنها
حملت اليه جميع الأنباء وهي لا تدري عنها شيئا . وتجلى
كرمها في المائدة التي أعدتها فسال لعبه شوقا الى الطعام

والشراب . وجلس الى جانبها على كنية مواجهة للفراش أمام
الخوان الحافل ، ولرضاه ربت شعرها المبتل وهو يقول على
سبيل التحية :

— أنت امرأة ولا كل النساء ..

وعصبت شعرها بمنديل أحمر ، وراحت تملأ الأكواب ،
مبتسمة طوال الوقت لقوله ، مبدية عن لونها الأسمر الباهت
بلا زواق ، منتعشة بالحمام كطعام متواضع لكنه طازج ، مطمئنة
في جلستها معتزة بامتلاكه ولو الى حين ، فارتاح الى ذلك كنه
دون حماس . وحدجته بنظرة ارتياب وقالت :

— أنت تقول هذا ! ، أكاد أصدق أحيانا أن الرحمة قد
تعرف قلوب رجال البوليس قبل أن تعرف قلبك ..
— صدقيني أنا سعيد بك ..

— حقا ؟

— نعم ، رقة قلبك لا يمكن أن تقاوم .

— ألم أكن كذلك في الزمان الأول ؟

هيهات . أن ينسينا انتصار سهل هزيمة دامية . وقال :

— كنت وقتذاك بلا قلب ..

— والآن ؟

فتناول كوبه قائلا :

— لنشرب ولنبتهج ..

وأقبل على الطعام والشراب بشهوة صادقة ، حتى سأله :

- كيف قضيت وقتك ؟
فأجاب وهو يغمس ريشة في الطحينة :
— بين الظلمة والقبور ، أليس لك أموات هنا ؟
— أمواتي في قبور البلينا ، رحمة الله على الجميع ..
وصمتا فوضحت أصوات التمطق واحتكاك الأكواب
وطقطقة الصينية . وعاد سعيد يقول :
— سأطلب منك أن تشتري لى قماشا يصلح لبدلة ضابط ..
— ضابط ؟
— ألا تدرين أننى تعلمت الخياطة فى السجن ؟
فتساءلت بنظرة قلقة :
— ولكن لمه ؟
— جاء دورى فى الجهادية !
— ألا تفهم أنى لا أريد أن أفقدك مرة أخرى ؟
فقال بثقة غريبة :
— لا تخافى علىّ لولا الغدر ما تمكن البوليس منى أبدا .
تنهدت فى امتعاض فراح يقول من فهم مكتنظ :
— أنت نفسك ألسن عرضة للخطر ؟
ثم وهو يبتسم :
— كأن يهاجمك قاطع طريق فى الصحراء مثلا ؟
وضحكا معا ، ثم مالت فحواه فقبلت شفثيه اللزجتين
يشفثين لزجتين وقالت :

— الحق أننا لكى نعيش يجب ألا نخاف شيئاً ..

فتساءل وهو يومئ الى النافذة بذقنه :

— حتى الموت ؟

— أعوذ بالله ..

ثم باستهانة :

— وحتى هذا أنساه عندما يجمعنى الزمان بمن أحب ..

أعجب بحرارة قلبها وقوة اصراره ، ولفتوره شعر نحوها
بالرثاء والاحترام والامتنان .

وكانت ثمة فراشة تعاق المصباح العارى فى تلك الساعة
من الليل ..

الفصل الحادى عشر



لا يمر يوم دون أن تستقبل القرافة ضيوفا جددا . وكأن لم يبق لك من غاية الا أن تقبع وراء الشيش لترى الموت فى نشاطه الدائب . والمشييعون أحق بالرثاء ، يذهبون فى جموع باكية ، ثم يعودون وهم يجففون الدموع ويتحدثون . وقوة أقوى من الموت نفسه هى التى تقنعهم بالبقاء . هكذا دفن الذاهبون من

أهلك . عم مهران الكهل الطيب بواب عمارة الطلبة . العمل
والفطنة والأمانة . وقد اشتركت معه في الخدمة منذ الطفولة .
ورغم البساطة والفقر كانت الأسرة تفوز في ختام يومها بجلاسة
هنية في الحجرة الأرضية بحوش العمارة ، الرجل وامراته
يتحادثان والطفل يلعب . ولا يمانه بالله اعتنق الرضى ، وكان
الطلبة يحترمونه . ونزهته الوحيدة كانت في الحج الى بيت
الشيخ على الجنيدى ، وعن طريقه عرفت أنت بيت الشيخ .
يا سعيد تعال معي ، سأدلك على رياضة هي خير من اللعب في
الحقل ، ستذوق لذة العيش في جو البركة ، بهذا يطمئن قلبك
وطمأنينة القلب هي خير زاد في الدنيا . وتلقاك الشيخ بنظرة
عامرة بالحنان فأعجبت أيما اعجاب بلحيته البيضاء ، وقال يخاطب
أباك « هذا ابنك الذي حدثتني عنه ، النجاة في عينيه ، قلبه
أبيض كقلبك ، وستجده ان شاء الله من الطيبين » . والحق أنك
أحببت الشيخ على الجنيدى جدا . فتنتك وضاعة وجهه واشعاع
المحبة المنبثق من عينيه . كذلك أعجبتك الأنعام والأفاشيد
فلعبت بأوتار قلبك حتى قبل أن يهذبه الحب . وقال له عم
مهران يوما « علم هذا الغلام ماذا يجب عليه أن يفعل » فأجاب
الشيخ وهو يحنو عليك بنظرة « نحن نتعلم من المهد الى
اللحد ، ولكن يا سعيد ابدأ بأن تحاسب نفسك ، وليكن في كل
فعل يصدر عنك خير لانسان » ! واتبعت قوله على قدر
استطاعتك ولكنك لم تحققه على أكمل وجه الا حين احترفت

الصوصية ! . وتتابعتم أيام كالأحلام ثم اختفى عم مهران
الطيب . اختفى الرجل على نحو لم يفهمه الغلام ، وبدأ الشيخ
على الجنيدى نفسه عاجزا أمام اللغز . « يا بؤسك .. يا بؤسنا .
مات أبوك » هكذا صاحت أمك وهى تصوت وأنت تهز رأسك
وتدعك عينيك لتفريق من النوم بعد أن أيقظك صراخها فى
الحجرة الأرضية بعمارة الطلبة . وبكيت فزعا لأنه لم يكن فى
وسعك أن تفعل شيئا . ولكن تجلت فى تلك الليلة شهامة رءوف
علوان الطالب بكلية الحقوق . كان شهما فى جميع الأحوال ،
وكنت تحبه كما تحب الشيخ على الجنيدى وأكثر ، وهو الذى
سعى فيما بعد الى أن تحل مكان أبيك فى خدمة العمارة ، أو
أن تحل أنت وأمك فى مكان أبيك وهو الأصديق ، فنهض
بالمسئولية فى سن مبكرة . ثم اختفت أمى . وكدت تهلك بسبب
مرضها كما لا بد أن يذكر رءوف علوان . ويوم النزيف الذى
لا ينسى ، يوم طرت بها الى أقرب مستشفى . مستشفى صابر
التي تقوم كالقلعة وسط حديقة غناء . وجدت نفسك أنت
وأمك فى قاعة استقبال عند المدخل فخيمة بدرجة لم تجر لك فى
خيال ، وبدأ المكان كله وكأنما يأمرك بالابتعاد ولكنك كنت فى
مسيب الحاجة الى اسعاف ، اسعاف سريع . ودلوه على الطبيب
الشهير وهو خارج من غرفة فجرى اليه بجلبابه وصندله صائجا
« أمى .. الدم .. » فتفحصه الرجل بعينين زجاجيتين مستنكرا
ومد بصره الى حيث استلقت الأم على مقعد وثير بشوب

كالسخام . وثة ممرضة أجنبية كانت تراقب ما يجرى عن كسب
فبازاء ذلك اكتفى بالاختفاء صامتا . ورطنت الممرضة بلغة لم
يفهمها ولكنه شعر بأنها تشاركه بعض مأساته . وغضب غضبة
رجل رغم حداثة سنه . صاح محتجا لاعنا . ورمى بمقعد الى
الأرض فأحدث دويا وتطايرت قشرة مسنده . وجاء خدم
كثيرون ، وما لبث أن وجد نفسه وأمه وحيدين في الطريق
المسقف بالأغصان . وعقب شهر من الحادث ماتت الأم في
قصر العيني . وطيلة احتضارها ظلت قابضة على يدك وتأبى أن
تحول عنك عينيها . غير أنك في غضون شهر المرض سرقت ،
لأول مرة ، سرقت طالبا ريفيا من نزلاء عمارة الطلبة ، واتهمك
الطالب دون تحقيق وانهال عليك ضربا حتى جاء رءوف علوان
فخلصك من قبضته ، وسوى المسألة بلا مضاعفات . كنت
انسانا حقا يا رءوف وفضلا عن ذلك كنت أستاذى أيضا . وحين
خلا اليك قال لك بهدوء : « لا تخف ، الحق انى أعتبر هذه
السرقه عملا مشروعا ! » . ولكنه استدرك محذرا : « ولكنك
ستجد البوليس لك بالمرصاد » . وقال لك أيضا ساخرا : « ولن
يتسامح القاضى معك مهما تكن بواعثك مقنعة فهو أيضا يدافع
عن نفسه » . ثم تساءل بالسخرية نفسها : « أليس عدلا أن ما
يؤخذ بالسرقة فبالسرقة يجب أن يسترد ؟ » . ثم هتف غاضبا :
« انى أعلم بعيدا عن أهلى وأكابد كل يوم عذابا وجوعا
وحرمانا » . أين ذهبت تلك الحكم يا رءوف ؟ . لعلها ماتت

كأبى وأمى وأمانة زوجتى . ولم يكن بد من أن تهجر عمارة
الطلبة سعيا وراء الرزق فى مكان آخر . وانتظرت عند النخلة
الوحيدة فى نهاية الحقل حتى قدمت نبوية فوثبت نحوها وقلت
لها : لا تخافى ، يجب أن أكلمك ، أنا ذاهب ، سأجد عملا أوفر
ربحا ، وأنا أحبك ، لا تسيبنى أبدا ، أنا أحبك وسأحبك دائما
وسوف أثبت لك أنى قادر على اسعادك وعلى فتح بيت محترم
لك . وفى تلك الأيام كانت الأحزان تنسى والجروح تلتئم والأمل
يحصد الصعاب ، فيا أيتها القبور الغارقة فى الظلمة لا تسخرى
من ذكرياتى ! .

ونفض من استلقائه فجلس على الكنبه فى الظلام وخاطب
رءوف علوان كأنه يراه أمامه قائلا فى سخرية :

— لو قبلت أن أعمل محررا فى جريدتك يا وغد لنشرت
فيها ذكرياتنا المشتركة ولحسفت نورك الكاذب ..

ثم تساءل بصوت مسموع :

— الام أطيق أن أبقى فى الظلام حتى تعود نور قبيل
الفجر ؟

واستولت عليه بغته رغبة لا تقاوم فى أن يغادر البيت للقيام
بجولة فى الليل . وانهارت مقاومته كما ينهار بناء آيل للسقوط
فى ثوان . وفى دقائق كان يغادر البيت فى حذر ، فاتجه نحو
طريق المصانع ، ومنه مال نحو الحلاء . وازداد بمغادرة المخبأ
وعيا بأحاساس المطارد . فشارك الفئران والشعابين مشاعرها

حين تتسلل . وحيد في الظلمة ، تتربص به المدينة التي تلوح أضواؤها في الأفق ، ويتجرع وحدته حتى الشمالة ، وجلس الى جانب طرزان على أريكته ولم يكن بداخل القهوة الا رجل واحد من مهربي السلاح وصبي القهوة على حين ضج سفح الهضبة بالسمر . وسرعان ما جاءه صبي القهوة بالشاي ، ثم مال طرزان نحوه هامسا :

— لا تقم في مكان واحد أكثر من ليلة ..
وقال المهرب :

— اهرب الى الصعيد ..
فتساءل سعيد :

— لا أحد لي في الصعيد ..
فعاد المهرب يقول :

— كثيرون تحدثوا عنك أمامي بأعجاب ..
فتساءل طرزان بحنق :

— والبوليس هل يعجب به أيضا ؟

فضحك المهرب حتى اهتز جسمه هزة غريبة كأنه يمتطي جملا مسرعا ، ثم قال :

— البوايس لا يعجبه العجب !
فتمتم سعيد :

— ولا الصيام في رجب ..

فقال صبي القهوة بحماس :

— أى ضرر فى سرقة الأغنياء ؟

فابتسم سعيد فى ارتياح كأنه يتلقى تحية فى حفل تكريم
ثم قال :

— الجرائد لسانها أطول من حبل المشنقة ، وماذا ينفعك
حب الناس اذا أبغضك البوليس ؟

ونهض طرزان فجأة فاندفع نحو النافذة وأطل منها ملتفتا
بيمينه ويسرة ، ثم عاد وهو يقول باهتمام :

— خيل الى أنى رأيت وجهها ينظر إلينا !
فالتفت عينا سعيد ، وردد ناظريه بين النافذة والباب ،
وخرج الصبى مستطلعا ، على حين قال المهرب :

— أنت ترى دائما أشياء لا وجود لها .

فهتف به طرزان :

— اسكت ، أنت تظن أن حبل المشنقة لهو ولعب !

وغادر سعيد القهوة بيد قابضة على المسدس فى جيبه .
ومضى فى الخلاء وهو يتلفت ويتنصت فى حذر وتصميم .
وتضاعف احساسه بالمطاردة والوحدة والقلق ، وأدرك أنه
— لا يمكن أن يستهين بكتلة الأعداء المفعة شهوة وخوفا والتي
لن يرتاح لها بال حتى تراه جثة هامدة . وعندما اقترب من
البيت بشارع نجم الدين رأى النور فى نافذة نور فداخله أول
شعور بالراحة منذ غادر القهوة . ووجدتها راقدة فهمم بمداعبتها

ولكنه تبين في وجهها اعياء صارخا ، واحمرارا في العينين
لا يكون الا لعله . وجلس عند قدميها وهو يسأل :

— مالك يا نور ؟

فقلت بصوت ضعيف جدا :

— ميتة ! ، تقايات حتى مت ..

— الحمر ؟ !

اغرورقت عيناها وهي تقول :

— طول عمري وأنا أشرب !

وكان يرى دمعا لأول مرة فتأثر وهو يسأل :

— اذن ما السبب ؟

— ضربوني !

— البوليس ؟

— شبان لعلهم طلبة وأنا أطالبهم بالحساب ...

انحرف جانب فيه في رثاء وتمتم :

— اغسلى وجهك واشربى قليلا من الماء ..

— فيما بعد ، أنا تعبانة جدا ..

فتمتم غاضبا :

— الكلاب !

وربت ساقها اعرابا عن رثائه فقالت وهي تشير الى لفة

على الكنبه الأخرى :

— قماش البدلة !

فرفت يده حنانا وامتنانا ، وعادت هي تقول كالمعتذرة :

— لن أروق في عينيك هذه الليلة ..

— لا عليك ، اغسلى وجهك ثم نامى ..

وفصل بينهما الصمت ، ونبح في مشارف القرافة كلب ،
ونددت عن نور تنهدة كالبخار ، ثم ارتفع صوتها وهي تقول
في حزن بالغ :

— قالت أمامك مستقبل كالورد ..

فتساءل متعجبا :

— من ؟

— ضاربة الودع ، وقالت سيجيء الأمان والاطمئنان ..

فنظر الى سواد الليل المتراكم خارج النافذة ، واستطردن
هي تقول :

— متى يجيء ؟ .. الانتظار طال ولا فائدة ، ولى صديقة
أكبر منى بأعوام تقول وتعيد القول اننا نصير عظاما أو أسوأ
من ذلك فحتى الكلاب تعافنا ..

وخيل اليه أن الصوت المتكلم نافذ من قبر فامتلا شجنا ولم
يجد ما يقوله . وقالت هي :

— ضاربة الودع متى تصدقين ؟ ، أين الأمان ؟ ، أريد
نومة مطمئنة وصحوة هنية وجلسة وديعة ، هل يتعذر ذلك على
رافع السماوات السبع ؟!

كذلك أنت حلمت بهذه الحياة ورغم ذلك مرت حياتك

وكلها تسلق مواسير وقفز من الأسطح ومطاردة في الظلام
ورصاصات طائشة تقتل الأبرياء . وقال لها واجما ..

— أنت في حاجة الى النوم ..

— أنا في حاجة الى الوعد ، وعد ضاربة الودع ، وسوف
يأتى ذلك اليوم ..

— حسن .

فقلت بحدّة :

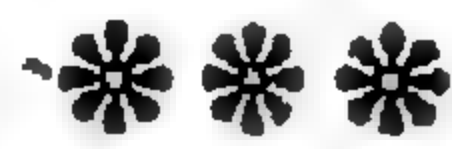
— أنت تلاطفنى كأننى طفل ..

— أبدا ..

— سوف يأتى حقا ذلك اليوم ..

الفصل الثاني عشر

ارتدى بدلة الضابط على سبيل التجربة فحدجته نور
يدهشة ولكنها لم تلبث أن قالت فى توسل :
— كن حكيما ، لم يعد فى وسعى أن أفقدك ..
فأشار الى البدلة وهو يقول :
— عن حكمة صنعتها ..
وتفحص صورته فى المرآة بعناية ثم قال ساخرا :
— أظن من المناسب أن أقنع برتبة صاغ ..



ولكنها سمعت عن أسطوره فى الليلة التالية مباشرة .
ورأت عديدا من صورته فى مجلة أسبوعية مع صاحب من
صحابها العابرين . وانهارت أمامه فى يأس قائلة :
— قتلت ! ، يا مصيبتى ! ، ألم أتوسل اليك ؟
فلاطفها بيده قائلا :
— حدث ذلك قبل أن نلتقى ..
فزاغ بصرها ، وقالت فى شك ويأس :
— أنت لا تحبنى ، أنا أعرف هذا ، ولكن كان من الممكن
أن نعيش معا حتى تحبنى !

— هذه الفرصة موجودة ..

فقلت في يأس أرهب :

— لكنك قتلت ، ما الفائدة ؟

فابتسم في اطمئنان وثقة وقال :

— ما أسهل أن نهرب معا ..

— ماذا تنتظر ؟

— حتى تهدأ الزوبعة ..

فضربت الأرض بقدمها قائلة :

— سمعت أن الجنود يملأون مخارج القاهرة ، كأنك أول

قاتل .. !

الجرائد .. الحرب الخفية ! .. ولكنه قال في هدوء مصطنع :

— سأهرب حين أقرر الهرب وسترين ..

وقبض على ضفيريها كالغاضب وقال موبخا :

— ألا تعرفين من يكون سعيد مهران ! ، الجرائد كلها

تتحدث عنه وأنت لا تؤمنين به ، أصغى الى " ، سنعيش معا الى

الأبد ، وستصدق كلمة ضاربة الودع !

ومضى في الليلة التالية الى قهوة طرزان ، هربا من الوحدة

وطلبا للجديد من الأنباء . وما كاد يظهر عند مدخل القهوة حتى

بادره طرزان فذهب به الى الخلاء بعيدا ثم قال معتذرا :

— لا تؤاخذنى ، حتى قهوتى لم تعد بالمكان المأمون لك ..

فقال سعيد واجما وإن أخفى الظلام وجومه :

— ظننت الزوينة قد هدأت ..

— انها تزداد كل يوم اشتعالا بسبب الجرائد ، اختف ،
ولكن لا تحاول الخروج من القاهرة الآن ..
فتساءل سعيد في حلق :

— ألا تجد الجرائد موضوعا غير سعيد مهران ؟
— انها تقص على الناس أنباء غزواتك الماضية حتى أثارت
عليك المحافظة ..

وهم* بالذهاب فقال له طرزان وهو يودعه :
— فلنتقابل بعيدا عن القهوة اذا شئت ..
وعاد الى مخبئه في بيت نور . الى الوحدة والظلمة
والانتظار . وهتف بغضب :

— أنت يا رءوف وراء كل ذلك ..
جميع الجرائد سكنت أو كادت الا جريدة الزهرة . مازالت
تنبش عن الماضي وتستفز البوليس . انها توشك أن تنادى
ببطولته سعيا وراء القضاء عليه . ولن يهدأ رءوف علوان حتى
يطوق عنقه بحبل المشنقة ، ومعه القانون والحديد والنار .
وأنت هل لحياتك التالفة من معنى الا أن تقضى على أعدائك .
عليش سدره مجهول المكان ورءوف علوان في قصر من حديد
ولكن ما معنى حياتك ان لم تؤدب أعدائك ؟ . ولن تحول قوة
دون تأديب الكلاب . أجل لن تحول دون ذلك قوة . وبصوت
مسموع تساءل :

— رءوف علوان ، خبرنى كيف يغير الدهر الناس على هذا النحو البشع ؟ !

— الطالب الثائر . الثورة فى شكل طالب . وصوتك القوى يترامى الى عند قدمى أبى فى حوش العمارة قوة توقظ النفس عن طريق الأذن . عن الأمراء والباشوات تتكلم . وبقوة السحر استحال السادة لصوصا . وصورتك لا تنسى وأنت تمشى وسط أقرائك فى طريق المديرية بالجلابيب الفضفاضة وتمصون القصب . وصوتك يرتفع حتى يغطى الحقل وتسجد له النخلة تلك هى الروعة التى لم أجد لها نظيرا ولا عند الشيخ الجنيدى . هكذا كنت يا رءوف . وبفضلك وحدك ألحقنى أبى بالمدرسة وعند أحراز النجاح ضحكت ضحكة عظيمة ولوالدى قلت : « رأيت ؟ .. لم تكن تريد أن تعلمه ، انظر الى عينيه ، سيكون ممن يقوضون الأركان » . وعلمتنى حب الكتاب وناقشتنى كأنى نداء لك . وكنت بين المستمعين لك عند النخلة التى نبتت عند جذورها قصة حبي وكان الزمان ممن يستمعون لك الشعب .. السرقة .. النار المقدسة .. الثروة .. الجوع .. العدالة المذهلة . ويوم اعتقلت ارتفعت فى نظرى الى السماء . وارتفعت أكثر يوم حميتنى عند أول سرقة . ويوم رد حديثك عن السرقة الى كرامتى . ويوم قلت لى فى حزن : « سرقات فردية لا قيمة لها ، لا بد من تنظيم ! » . ولم أكف عن القراءة والسرقة بعد ذلك . وكنت ترشدنى الى الأسماء الجديدة بالسرقة . ووجدت

في السرقة مجدى وكرامتى . وأغدقت على أناس كان من بينهم
للأسف عيش سدره . وبصوت غاضب قال في الحجرة المظلمة :

— أأنت حقا رءوف علوان صاحب القصر ! ، أنت الثعبان
الكامن وراء حملة الصحف ؟ ! تود أن تقتلنى كما كان
الآخرون . وكما تود أن تقتل ضميرك . وكما تود أن تقتل
الماضى . لكنى لن أموت قبل أن أقتلك . أنت الخائن الأول .
ما أعبت الحياة ان قتلت غدا جزاء قتل رجل لم أعرفه . فلكى
يكون للحياة معنى وللموت معنى يجب أن أقتلك . لتكن آخر
غضبة أطلقها على شر هذا العالم . وكل راقد فى القرافة تحت
النافذة يؤيدنى . ولأترك تفسير اللغز للشيخ على الجنيدى ..

وعند أذان الفجر سمع الباب وهو يفتح . وجاءت نور
حاملة الشواء والشراب والجرائد ، وبدت مبسوطة شوية كأنما
نسيت أشجان الأمس وأحزان أمس الأول . وبحضورها انقشع
الظلام فوثب قلبه المنهك ليعانق الدنيا بطعامها وشرابها
وأخبارها . وقبلته فقبلها بامتنان ، وبلا تكلف لأول مرة . ود
ألا تغيب عنه ، وهى القلب الذى يودعه الحب قبل الموت .
وفض سداد الزجاجة فى مجلسهما المعتاد فملاً كوباً ثم صبها فى
جوفه نارا . وسألته وهى ترنو الى وجهه المتعب :

— لم لم تنم ؟

وكان يتصفح الجرائد فلم يجب فمضت تقول باشفاق :
— الانتظار فى الظلام عذاب .

فسألها وهو يرمى بالجرائد جانبا :

— كيف الحال فى الخارج ؟

— كحاله فى كل يوم ..

ونضت عنها ثيابها الا قميصا شفافا فسطعت أنفه رائحة
بودرة ملبدة بالعرق ، ثم استطردت :

— ويتحدث عنك ناس كالك عنتره ولكنهم لا يدرون
عذابنا ..

فقال ببساطة :

— أكثرية شعبنا لا تخاف اللصوص ولا تكرههم ..

وتواصلت خمس دقائق فى التهام الشواء ثم قال :

— ولكنهم بالقطرة يكرهون الكلاب ..

فقلت باسمه وهى تلعق أناملها :

— أنا لا أحب الكلاب ..

— لا أعنى هؤلاء ..

— نعم ، ولم يخل بيتى منها أبدا حتى شهدت موت آخر

واحدة وبكيت كثيرا فصمت ألا أعاشرها مرة أخرى ..

فقال ساخرا :

— ينبغى أن تتجنب الحب اذا تواعدنا بالتعب ..

— أنت لا تفهمنى ولا تحبنى ..

فقال برجاء :

— لا تكونى ظالمة ، ألا ترين أن الدنيا كلها ظالمة ؟ !



وأفرطت في الشراب حتى دار رأسها واعترفت له بأن اسمها
الحقيقي هو شلبية وقصت عليه نوادر من عهد البلينا . الطفولة
والمياه الراكدة والشباب والهرب . ثم قالت بخيلاء :

— وأبى كان عمدة ..

فقال ببساطة :

— كان خادم العمدة !

فقطبت ولكنه بادرها قائلاً :

— أنت التي قلت في الزمان الأول ..

فضحكت كاشفة عن أسنان مغطاة بالبقدونس وقالت :

— أقلت ذلك حقاً ؟

فقال بحدة :

— ولذلك انقلب رءوف علوان خائناً ..

فحدجته بنظرة انكار متسائلة :

— من رءوف علوان ؟

فقال بسخط :

— لا تكذبي ، ان من يعاني الظلمة والوحدة والانتظار

لا يطيق الكذب ..

الفصل الثالث عشر



عقب منتصف الليل اخترق سعيد الصحراء وفي الجانب
الغربي من السماء شيء من القمر . وعلى مبعدة مائة متر من

هضبة لقهوة صفر ثلاثا وراح ينتظر . لم يكن بد من أن يضرب
ضربته أو يجن . وكان يأمل أن يجد طرزان الخبير . وما
لبث أن جاء طرزان كموجة من الظلام فتعاقبا ثم سأله :

— هل من جديد ؟

فقال الرجل وهو يلهث بما يتناسب مع سمائه :

— أخيرا جاء واحد منهم ..

فتساءل سعيد بلهفة :

— من ؟

فشد على يده قائلا :

— المعلم بياظة وهو الآن في القهوة يعقد صفقة ..

— لم يضع الانتظار هباء ، ماذا تعرف عن طريقه ؟

— سيرجع من طريق الجبل ..

— تشكر يا معلم ..

وابتعد مسرعا نحو الشرق مهتديا بالضوء الوانى حتى
الغابة المحدقة بعيون المياه . وسار بحذاء ضلعها الجنوبي حتى
رأسها المدبب الغائص في الرمال عند بدء الطريق المنحدر نحو
الجبل . توارى وراء شجرة متربصا . وجرى هواء جاف منعش
فصدرت عن رقعة الغابة الصغيرة وشوشة ، وترامى الخلاء
كالقناء ، ويده قابضة على المسدس ، يفكر في الفرصة الممكنة ،
في الانقضاض على عدوه غير المنتظر ، ثم في بلوغ الهدف.

المضنى ، وأخيرا فى الهلاك كآخر مستقر . وقال بصوت لم
تسمعه الا الأشجار الثملة بالهواء :

— عlish سدره ثم رءوف علوان فى ليلة واحدة ، ثم ليكن
ما يكون ..

وتوثب يصارع الانتظار ولكن لم يطل به الانتظار فما لبث
أن لاح شبح يسرع فى الظلام ، آتيا من ناحية الهضبة نحو
رأس الغابة . ولما لم يعد بينه وبين بدء الطريق الا متر اندفع
سعيد من مكنته مصوبا مسدسه هاتفا :

— قف ..

وتسمر الشبح كأنه تكهرب ، وحملق فى الرجل دون أن
ينبس بكلمة ، فقال سعيد :

— بياظة أنا أعرف أين كنت وماذا فعلت ومقدار ما تحصل
من نفود ..

فوضح تنفس الشبح كالفحيح وندت عن ذراعه حركة
خفيفة مترددة سرعان ما همدت ، وغمغم :

— فلوس العيال !

فلطمه على وجهه لكمة زادت الليل سوادا فى عينيه وقال
بنبرات منطلقة :

— ألم تعرفنى يا بياظة الكلب ؟ !

فهتف بياظة :

— من ؟ .. عرفت الصوت ولكنى لم أصدق .. سعيد
مهران ؟ !

— لا تتحرك ، ستقتل عند أول حركة ..
— أنت تقتلنى ! ، لم ؟ ليس بيننا عداوة !
فمد سعيد يده الى صدره حتى عثر على الكيس الثقيل ثم
انتزعه من مربطه بقوة وهو يقول :
— هذه واحدة !

فهتف بياظة بجزع ا
— هذا مالى ، ولست عدوا لك ..
— اخرس ، لم آخذ كل ما أريد بعد ..
— بيننا زمالة يجب أن تحترم .
فحرك المسدس فى يده وقال :
— اذا أردت النجاة بحياتك فخبرنى أين يقسم عيش
سدره ؟

فقال الرجل بتوكيد :
— لا أعرف ولا أحد يعرف ..
فلطمه لكمة أخرى أشد من الأولى وصاح بغضب :
— سأقتلك ان لم تدلنى على مكانه ، ولن تسترد نفوسك
حتى أتأكد من صدقك !
فقال الرجل بنبرة متألمة :
— لا أعرف ، أقسم لك أنى لا أعرف ..

— كذاب !

— أحلف لك بالطلاق ان شئت !

— هل ذاب كما يذوب الملح ؟

فقال بنبرة تستجدي تصديقه :

— لا أعرف ولا أحد يعرف ، انتقل من شقته عقب زيارتك

له خوفا من بطشك ، انتقل الى روض الفرج ..

— عنوانه ؟

— انتظر يا سعيد ، بعد قتل شعبان حسين سافر ومعه

أسرته دون أن يخبر أحدا عن وجهته ، كان مرتعبا وكانت المرأة

مرتعبة ، ولا يدري أحد عنهما شيئا !

— بياظة !

— أحلف لك بالطلاق بالثلاثة !

فلطمه الثالثة فتأوه وصاح بصوت ممزق :

— لم تضربنى يا سعيد ؟ ، ربنا يججمه حيث يكون ، أهو

أخى أو أبى حتى أموت بسببه ؟ .

وصدقه فى النهاية على رغمه . ويش من العثور على غريمه .

ولو لم تكن تطارده جريمة قتل لصبر وانتظر حتى تحين الفرصة

ولكن الرصاصة الطائشة أصابت أعز أمائسه . واذا بياظة

يقول :

— أنت ظلمتنى !

— فلم ينبس فاستطرد الرجل :

— وفلوسى ؟ !

وتحسس الرجل خديه الملتهبتين ثم قال :

— أنا لم أسىء اليك فلا يحق لك أن تغتصب مالى ، ولى عليك حق الزمالة !

فقال باحتقار :

— كنت ضمن أعوانه ..

— كنت صديقه وشريكه ولا يعنى هذا أن أكون عدوك ،

ولا شأن لى بخيائته ..

انتهى الصراع ولم يبق الا التراجع . وقال سعيد بصراحة :

— انى فى حاجة الى تقود ..

فبادره بياظة :

— لك ما تشاء ..

قنع سعيد بعشرة جنيهات . وذهب الرجل وهو لا يصدق بالنجاة . ووجد سعيد نفسه كما بدأ وحيدا فى الخلاء وقد تجلى ضوء القمر بوضوح أكثر وارتفعت مناجاة الأشجار . يبدو أن عيش سدره قد أفلت من مخالب التأديب . نجا بخيائته ليزيد الجؤنة الآمنين واحدا . أما أنت يا رءوف فالأمل الباقى فى ألا تضيع حياتى عبثا ..

الفصل الرابع عشر

رجع الى البيت ثم غادره ضابطا برتبة صاغ والساعة تدور في الواحدة . اتجه الى شارع العباسية متجنباً أضواء المصابيح متخذاً مشية طبيعية جداً بفضل قوة أعصابه . واستقل تاكسي الى جسر الجلاء ، ومر في طريقه بأفراد من الشرطة فلم يرتع لمنظرهم بطبيعة الحال . وذهب الى مرسى القوارب القريب من الجسر فاكترى قارباً صغيراً لمدة ساعتين ومضى يجدف جنوباً صوب قصر رءوف علوان في هواء رطيب وتحت سماء صافية مرصعة بالنجوم وتربيع القمر معلق فوق أشجار الشاطئ . وكان يشعر بفورة نشاط عجيب وبأن حدثاً متفجراً سينطلق عما قريب من صدره . أقنع نفسه بأن نجاة عlish سادرة ليست هزيمة له ما دام سينزل عقابه برءوف علوان ، اذ أن رءوف هو رمز الخيانة التي ينضوى تحتها عlish ونبوية وجميع الخونة في الأرض . وقال لرءوف علوان وهو يجدف بقوة : جاء وقت الحساب ، ولو كان الحُكم بيننا غير الشرطة لضمنت تأديبك أمام الناس جميعاً ، الناس معي عدا اللصوص الحقيقيين ، وذلك مايعزيني عن الضياع الأبدى . أنا روحك التي ضحيت بها ولكن



ينقصنى التنظيم على حد تعبيرك ، وأنا أفهم اليوم كثيرا مما أغلق على فهمه من كلماتك القديمة ، ومأساتى الحقيقية أننى رغم تأييد الملايين أجدنى ملقى فى وحدة مظلمة بلا نصير ، ضياع غير معقول ولن تزيل رصاصة عنه عدم معقوليته ولكنها ستكون احتجاجا داميا مناسبا على أى حال ، كى يطمئن الأحياء والأموات ولا يفقدون آخر أمل . ومال بالقارب نحو الشاطئ فى نقطة تواجه القصر على وجه التقريب . وهبط منه الى الأرض ثم جذبه بقوة حتى صار مقدمه فوق السفح ، ثم ارتقى المنحدر الى الكورنيش مكتسبا من بدلتة الرسمية ثقة وطمأينة . لاح الطريق خاليا ولا أثر لمخبر حول القصر فانبعث الارتياح فى نفسه ولم يخل فى الوقت نفسه من حنق . واكتنف الظلام القصر عدا مصباح الباب فتأكد لديه أن صاحب القصر لم يرجع بعد وان ذلك سيغفيه من اقتحام البيت ويذل له أكثر من عقبة . وفى مشية طبيعية مضى الى الشارع الى يسار القصر فقطعه حتى آخره ثم مال مع شارع الجزيرة نحو الشارع الآخر الى يمين القصر عائدا منه الى الكورنيش وهو يتفحص المكان كله ببصر من حديد . ومضى نحو شجرة فلبد فيما يليها من رقعة محجوبة عن مصباح الطريق وراح ينتظر . واستقرت عيناه على القصر طيلة الوقت عدا لحظات كان يريجهما بالنظر الى سطح الماء المعتم ، ودارت أفكاره أثناء ذلك حول خيانة رءوف والخذعة التى حطمت حياته ، والضياع الذى يحدق به ، والموت

الذى يسد طريقه ، وكيف أن كل أولئك جعل من موت رءوف
أمراً لا بد منه . وكان يتابع كل سيارة قادمة وهو يتوثب . وأخيراً
توقفت سيارة أمام باب القصر وراح البواب يفتح الباب على
مصراعيه . وأسرع سعيد نحو الشارع الى يسار القصر ، سار
ملاصقاً لل سور ، ثم توقف عند نقطة محاذية للسلامك حيث
سيغادر الرجل سيارته . وتهادت السيارة فى مشى الحديقة حتى
وقفت أمام السلامك . وأضىء المصباح فغمر النور المدخل كله .
أخرج سعيد مسدسه وصوبه نحو الهدف . وفتح باب
السيارة . نزل رءوف علوان . وصاح سعيد :

— رءوف !

اتبه الرجل الى مصدر الصوت فى دهشة فصاح سعيد :
— أأنا سعيد مهران .. خذ ..

غير أنه فى نفس الوقت انطلقت نحوه من الحديقة رصاصة
أصاب أزيزها صميم أذنه . حدث ذلك قبيل أن يطلق مسدسه
فاضطرب اضطراباً مفاجئاً وهو يطلق النار . وانحنى بسرعة
لئيتفادى من الرصاص المتتابع . ولكنه رفع رأسه فى تصميم يأس
وحذر وسدد مسدسه مرة أخرى وأطلق رصاصة وأخرى فى
عجلة ولهوجة . وقع ذلك كله فى ثوان ثم انطلق يعدو بأقصى
سرعة نحو شاطئ النيل فوثب نحو القارب . ودفعه الى الماء ،
وفى الثانية التالية كان يجدف بكل قوته نحو الشاطئ الآخر .
دار شعوره حول نفسه كال دوامة ، وانطلقت قواه من أعنف

مكائنها مباشرة وبلا أدنى وعى ، وخيل اليه أن رصاصا ينطلق ،
وأصواتا تتجمع ، وأن بعض جسمه يذوب . وكانت المسافة بين
الشاطئين فى منطقة عبوره ضيقة فسرعان ما بلغ الشاطئ . ووثب
اليه تاركا القارب للموج يفعل به ما يشاء . وصعد الى أرض
الشارع بيد قابضة على المسدس فى جيبيه . ورغم ما شعر به من
تشتت فقد سار على مهل ، وفى هدوء ، لا يلتفت يمنة ولا يسرة .
وتأكد لديه أن أقداما تتدافع نحو الشاطئ ، وأن أصواتا تحتدم
وتعلو فوق الجسر ، واخترقت الجو الحامل صسفارة مجنونة .
وتوقع فى كل لحظة أن يلحق به مطارد . وتأهب للتمثيل بكافة
احتمالاته أو لدخول المعركة الأخيرة . ومر به تاكسى قبل أن يقع
بمصادف فناداه ، واستقله ، وما كاد يتخذ مجلسه حتى شعر بالهم
حاد ولكنه رغم ذلك شعر بنعمة النجاة . وتسلسل الى المسكن فى
ظلام حالك . واستلقى على الكنبه ببدلته الرسمية . وعاوده
الآلم كاشفا هذه المرة عن مكانه فوق الركبة فامتدت يده اليه
فاستشعر سائلا لزجا . أووه .. هل ارتطم بشيء ؟ ، رصاصة ؟ ،
وراء السور أم وهو يجرى ؟ . وتحسس موضعه فرجع لديه
أنه مجرد جرح سطحي ، ولو كان رصاصة فقد احتكت به ولم
تنفذ فيه . وقام فخلع البداة فى الظلام وفتش عن جلبابه فوق
الكنبة فارتداه . وذرع الحجره ليطسئن على رجله . قديما أنت
قطعت شارع محمد على جريا برصاصة مستقرة لساعتها فى
ساقك . أنت قادر على فعل العجائب . وقد تفوز بالهرب أيضا .

أما الجرح فقليل من البن يضمده . ولكن هل قتل رءوف علوان ؟ . ومن الذى أطلق النار من الحديقة ؟ . حذار أن تكون أصبت ضعيفا بريئا آخر . ولكن لابد أن رءوف علوان قد قتل فيدك لا تخطيء . كما شهدت بذلك الصحراء وراء الهضبة وسوف ترسل خطابا الى الصحف بعنوان « لماذا قتلت رءوف علوان » . عند ذاك تسترد الحياة معناها المفقود . فالرصاصه التى تقتل رءوف علوان تقتل فى الوقت نفسه العيش . والدنيا بلا أخلاق ككون بلا جاذبية . ولست أطمع فى أكثر من أن أموت موتا له معنى .

وأقبلت نور فى غاية من الإعياء محملة بالطيبات ، وقبلته كعادتها وانبسطت أساريرها لتلقى بتحية لقاء ولكن بصرها جمد فجأة على البنطلون فنحَّت اللفة على الكنبه وتناولته هاتفة :
— دم !

ولحظ ذلك لأول مرة فكشف عن رجله قائلا :

— جرح بسيط نتيجة ارتطام بباب التاكسى .
فصاحت :

— أنت خرجت مرتديا البدلة لسبب ، أنت لن تقف عند حد ، وسوف أموت كمدا ..

— قليل من البن يشفى هذا الجرح قبل طلوع الصبح ..

— طلوع الروح ! ، أنت تقتلنى قتلا ، آه .. متى يزول الكابوس ؟ !

ونشطت فى نرفزة فكبست الجرح بالبن وعصبته بقصاصة

من بقايا الفستان الذى كانت تخطيه ، وظلت طيلة الوقت تندب
حظها . وقال لها :

— خذى دشافهذا أنفع لك ..

فذهبت وهى تقول :

— أفت لا تدرى النافع من الضار ..

ولما رجعت الى مجلس حجرة النوم كان قد شرب ثلث
الزجاجة فعاوده شىء من الاستقرار المريح ، واستقبلها قائلاً :

— اشربى ، أنا هنا فى مكان آمن مطمئن لن تمتد اليه عين

البوليس ..

فقالت فى نكد وهى تمشط شعرها المبتل :

— أنا تعيسة جدا ..

فتساءل وهو يواصل الشراب :

— من يستطيع أن يحكم عن الغد ؟

— عملنا !

— لا شىء ، لا شىء مؤكد الا قريبك الذى لا غنى عنه .

— أنت تقول هذا !

— وأكثر ، أنت جنة وسط الرصاص الذى يجد ورأى ..

وتنهدت تنهدة طويلة كمناجاة فى الليل فقال :

— أنت طيبة جدا ، أحب أن أعترف بذلك ..

— أنا تعيسة ، لا أود الا أن تبقى فى السلامة ..

— ما تزال أمامنا فرصة ..

— الهرب ! ، فكر فى الهرب ..

— نعم .. ولكن لنتنظر حتى يغمض الكلب عينيه ..
فقلت بحدة :

— ولكنك تخرج بلا مبالاة ، تود أن تقتل زوجتك والرجل
الآخر ، ولن تقتلهمما ولكنك ستلقى بنفسك في الهلاك ..
— ماذا تسمعين في الخارج ؟

— سائق تاكسى ، دافع عنك بحرارة ولكنه قال انك قتلت
رجلا ضعيفا بريئا ..

وتفخ في غضب ، ودارى ألمه الطافح بشربة مليئة ، وأشار
لها لتشرب فرفعت الكوب الى فيها ، وتساءل :
— وماذا سمعت أيضا ؟

— فى العوامة التى سهرت فيها قال أحدهم عنك انك منبه
مسئ فى الملل الراكد ..
— وأنت ماذا قلت ؟

فلحظته بعتاب وقالت :

— ولا كلمة ، أنا أحافظ عليك ، أما أنت فلا تحافظ على
نفسك ، وأنت لا تحبى ولكنك أعز على من النفس والحياة ،
وطول عمرى لم أعرف السعادة الا بين يديك ولكنك تفضل
الهلاك على حبى ..

وبكت والكوب فى يدها فطوقها بذراعه وهمس فى أذنها :
— ستجديننى عند وعدى ، سنهرب ونعيش معا الى
الأبد ..

الفصل الخامس عشر



يا للعناوين الضخمة والصور المثيرة كأنه الحدث الأكبر الذي تتلقفه الصحف . وسألوا رءوف علوان فأجاب أن سميد مهران كان خادما في عمارة الطلبة على عهد اقامته بها ، وأنه كان يعطف عليه كثيرا ، وأنه زاره بعد خروجه من السجن مستجديا فأعطاه مالا ليبدأ حياة جديدة ولكنه حاول سرقة بيته في الليلة

نفسها فقبض عليه وعنفه ولكنه أطلق سراحه رحمة به ، وجاء
أخيرا ليقتله ! . واتهمته الصحف بالجنون . جنون العظيمة
والدم . لقد أفقدته خيانة زوجته عقله فهو يطلق النار بلا وعى .
ولم يصب رءوف علوان ولكن البواب المسكين سقط . برىء
ضعيف آخر .

وصاح سعيد وهو يقرأ الخبر :

— اللعنة !

الدوى يقرع بقوة صاروخية . وثمة مكافأة ضخمة لمن
يرشد اليه . ومقالات تحذر الشعب من العطف عليه . أنت أهم
ما في الحياة اليوم . وستظل كذلك حتى تزهر روحك . انك
مثار الخوف والاعجاب كالظواهر الطبيعية الخارقة . وسيدين
لك بالسرور كل من خنقه الملل . أما مسدسك فالظاهر انه
لا يقتل الا الأبرياء وستكون أنت أخسر ضحية له . وتساءل
بصوت جاف :

— أهذا أهو الجنون ؟ !

كنت دائما تطمح الى زلزلة الكون من أساسه . حتى وأنت
مجرد بهلوان . وغزواتك الظافرة للقصور كانت خمرا يسكر بها
رأسك الفخور . وكلمات رءوف التي آمنت بها وكفر بها قائلها
أطاحت برأسك حتى الموت .

ولبت وحيدا في الليل ، وكان في الزجاجة خمر فشربها حتى
آخر نقطة . ووقف في الظلام يطوقه صمت المقابر ودار رأسه

رويدا . وشعر بأنه يتغلب على الصعاب ويستهن بالموت ويضطرب
لأنعام خفية . وقال مخاطبا الظلام :

— رصاصة طائشة جعلت منى رجل الساعة ! ..

ومضى الى الشيش فنظر من خلاله الى القرافة وقد رقدت
القبور تحت ضوء القمر وقال :

— يا حضرات المستشارين اسمعوا لى جيدا فقد قررت
الدفاع عن نفسى بنفسى ..

ورجع الى وسط الحجرة ثم نزع عنه جلبابه لشدة الحرارة
فى الحجرة ولا ارتفاع الحرارة فى جوفه من فعل الخمر . واختلج
جرحه بالألم تحت العصابة فأمن بأنه آخذ فى الالتئام . وحملق
فى الظلام قائلا :

— لست كغيرى ممن وقفوا قبلى فى هذا القفص ، اذ يجب
أن يكون للثقافة عندكم اعتبار خاص ، والواقع أنه لا فرق
بينى وبينكم الا أنى داخل القفص وأنتم خارجه ، وهو فرق
عرضى لا أهمية له البتة ، أما المضحك حقا فهو أن أستاذى
الخطير ليس الا وغدا خائنا ، ويحق لكم العجب ، ولكن يحدث
أن يكون السلك الموصل للكهرباء قدرا ملطخا بافرازات
الذباب ..

ومال نحو الكنية فاستلقى عليها . وترامى اليه من بعيد
نباح كلب . ولكن كيف تطمئن على قضائك وبينك وبينهم
خصومة شخصية لا شأن لها بالصالح العام ؟ ! . انهم أقرباء

للوغد ويفصل بينك وبينهم قرن من الزمان . وأنت تطالب
بشهادة الضحية . وتؤكد أن الخيانة باتت مؤامرة صامتة ..

— أنا لم أقتل خادم رءوف علوان ، كيف أقتل رجلاً لا أعرفه
ولا يعزفنى ؟ ، ان خادم رءوف علوان قتل لأنه بكل بساطة
خادم رءوف علوان ، وأمس زارتنى روحه فتواريت خجلاً
ولكنه قال لى ملايين هم الذين يقتلون خطأ وبلا سبب ..

ستألق هذه الكلمات وتتوج بالبراءة . أنت واثق مما
تقول . وفضلاً عن ذلك فهم يؤمنون فى قرارة أنفسهم بأن
مهنتك مشروعة ، مهنة السادة فى كل زمان ومكان ، وأن القيم
الزائفة حقاً فهى التى تقدر حياتك بالملايين وموتك بألف جنيه
وقاضى اليسار يغمز لك بعينه فأبشر .

— سأطلب دائماً رأس رءوف علوان ولو كآخر طلب من
عشماوى ، حتى قبل رؤية ابنتى ، وأنا مضطر الى ألا أعد العمر
بأيام لأن المطارد يقتات بزمته انفعالات تنهال عليه فى وحدته
كالمطر ..

لن يكون الحكم أقسى من جفول سناء . قتلتك قبل المشنقة
وعطف الملايين عليك عطف صامت عاجز كأمانى الموتى . ألا
يغفرون للمسدس خطاه وهو ربثهم الأعلى ؟ .

— ان من يقتلنى انما يقتل الملايين ، أنا الحلم والأمل وفدية
الجبناء ، وأنا المشل والعزاء والدمع الذى يفضح صاحبه ،

والقول بأننى مجنون ينبغى أن يشمل كافة العاطفين فادرسوا
أسباب هذه الظاهرة الجنونية واحكموا بما شئتم ..
واشتد به الدوار فقضى بأنه عظيم بكل معنى الكلمة
عظمة هائلة ولكنها مجللة بالسواد عشيرة للمقابر ولكن عزتها
ستبقى بعد الموت . وجنونها تباركه القوة السارية فى جذور
النبات وخلايا الحيوان وقلب الانسان . وسرقه النوم فلم يدر
كيف سرقه ، ولم يفطن الى أنه نام حقا الا حين استيقظ على
ضوء يغمر الحجرة . وفتح عينيه فرأى نور واقفة تنظر اليه من
عينين ميتين وقد تدلت شفرتها السفلى واحدودب ظهرها فى
قنوط ، بدت مثالا صادقا لليأس والضياع . أدرك ما وراء ذلك
فى ثانية ، لقد سمعت عن الجريمة الأخيرة فانكمت أنفاسها .
— أنت أقسى مما أتصور ، لا أفهمك . ولكن بالله اقتلنى
رحمة بى ..

وجلس على الكنبه دون أن ينبس .
— أنت تفكر فى القتل لا فى الهرب ، وسوف تقتل ، هل
تظن أنك ستهزم الحكومة بجنودها الذين يملأون الشوارع ؟
— اجلسى وانتحدث فى هدوء :
— من أين لى الهدوء ؟ ، وفيه تتحدث ؟ ، انتهى كل شئ ،
اقتلنى رحمة بى ..

فقال بهدوء رقيق :

— لا مسأك سوء أبدا ..

— لن أصدق كلمة مما تقول ، لماذا تقتل البوايين ؟
فهمت بحدة :

— لم أقصد مسه بسوء !

— والآخر ؟ ، من هو رءوف علوان ؟ ، ماذا بينك وبينه ؟ ،
أكانت له علاقة بزوجتك ؟
فضحك ضحكة جافة كالسعلة :

— فكرة مضحكة ! ، ثمة أسباب أخرى ، انه خائن أيضا.
ولكنه من نوع آخر ، لا أستطيع أن أفهمك كل شيء ..
فقلت بغضب :

— ولكنك تستطيع أن تعذبنى حتى الموت ..

— قلت اجلسي لتحدث في هدوء ..

— أنت لا زلت تحب زوجتك ، تلك الخائنة ، ولكنك
تعذبنى أنا ..

فقال متوجعا :

— نور ، لا تزيدني عذابا ، أنا في غاية من النكد ..

وصمت متأثرة بتوجعه الذى لم تره من قبل . ثم قالت
بحزن شديد :

— انى أشعر بأن أعز ما فى حياتى يحتضر ..

— وهم وخوف ، أما المغامر مثلى فلا يعترف بالشدائد ،
سأذكرك بذلك ..

فتساءلت بلهجة ندب :

— متى ؟

فقال مدعيا ثقة لا حد لها :

— أقرب مما تتصورين !

ومال فحوها فجذبها من يدها اليه ، ولصق جيئها بجيئنه
حتى امتلأ أنفه برائحة الخمر والعرق . ولم يتقزز ، بل قبلها
بحنان صادق ..

الفصل السادس عشر

اقترب الفجر ونور لم تعد . أنهكه الانتظار والفكر حتى
شعر بضربات السهاد تنهال على جمجمته . واذا بالظلمة الحارة
تنحسر عن تساؤل أحمر : هل يمكن أن تلعب المكافأة الموعودة
بقلب نور ؟ . حقا تلوث دمه بسوء الظن لآخر قطرة . والخيانة
في عينيه أضحت كرائحة الغبار في اليوم الخماسيني . وكم ظن
في الماضي أن نبوية ملك يذيه ، ولعلها في الواقع لم تحبه قط
حتى على عهد النخلة الوحيدة في نهاية الحقل . ولكن رغم ذلك
كله فنور لن تخونه ، ولن تسلمه الى البوليس طمعا في مكافأة
فقد ضجرت من المعاملات وتقدم العمر وباتت تحن الى عاطفة
انسانية خالصة . ينبغي أن يندم على سوء ظنه ، ولكن متى
تعود نور ؟ . لقد اشتد بك الجوع والظما والانتظار . كحالك
يوم وفقت تحت النخلة تنتظر . تنتظر نبوية ونبوية لا تجيء
وجعلت تحوم حول بيت العجوز التركية وأنت تقضم أظافرك ،
وكدت من اليأس أن تطرق الباب في طيش جنوني . أى هزة فرح
كانت تسكر جوارحك عند بزوغ طلعتها ! . هزة شاملة متغلغلة
مطربة مسكرة تشدك من أطراف أصابعك الى السماء السابعة .
فيها الدمة والضحكة والاندفاع والثقة والفرحة الجامحة . ولكن

لا تتذكر عهد النخلة بعد ما انقضى وفصل بينك وبينه الدم
والرصاص والجنون . انظر ماذا أنت صانع بمرارة الانتظار في
هذه الظلمة الحارة القاتلة . يبدو أن نور لا تريد أن تعود ،
لا تريد أن تنقذه من عذاب الوحدة والظلمة والجوع والظما .
ورغم كل شيء فقد نام وهو أياأس ما يكون من الندم . ولما
فتح عينيه رأى الشيش ينضح بنور النهار ووهج الحر يشتعل
في الحجرة المغلقة . ووثب الى أرض الحجرة في انزعاج ثم انتقل
الى حجرة النوم فوجدتها كما تركتها المرأة أمس ، ودار بالشقة ،
كلا ، نور لم تعد . ترى أين باتت المرأة ؟ ، وماذا منعها عن
العودة ؟ ، والام يقضى عليه بهذا السجن المنفرد ؟ . وقرصه
الجوع رغم قلقه وأفكاره فذهب الى المطبخ فوجد في الصحاف
كسرا من الخبز وفتات لحم عالقة بالعظام وبعضا من البقدونس
فأتى عليها في نهم شديد وتمصص العظام ككلب . وتقضى
النهار وهو يتساءل عن غيابها وهل تعود ، يجلس حيناً ويتمشى
حيناً آخر . ولم يجد من تسلية الا في النظر من الشيش الى
القرافة ، ومتابعة الجنازات ، وعد القبور دون جدوى . وجاء
المساء ولم تعد . لا يمكن أن يقع هذا بلا سبب . أين نور ؟
مزقه القلق والضيق والجوع . نور في مأزق بلا ريب ، ولكن
يجب أن تخلص من مأزقها ثم تعود والا فكيف تمضي به
الحياة .

وغادر البيت عقب منتصف الليل دون أن يسمع همس

حذائه أحد . وقطع الخلاء نحو فهوة طرزان . وعند موقفه
المعتاد صفر ثلاثا وانتظر حتى جاءه المعلم طرزان . وصافحه
الرجل وهو يقول له :

— كن شديد الحذر ، لا يخلو شبر من مخبر ..

— أريد طعاما !

— يا خبر أبيض ! ، جوعان !

— نعم ، لا تعجب لشيء يا معلم !

— سأرسل الولد ليحضر لك الكباب ، ولكن من الخطر
حقا أن تخرج ..

— تعرضنا فيما مضى لأخطار أشد ، أنا وأنت ..

— كلا ، الهجمة الأخيرة قلبت عليك الدنيا ..

— طول عمرها وهى مقلوبة ..

— ولكن من النحس أن تهاجم رجلا خطير الشأن ..

وودعه وانصرف . وبعد ساعة جاءه الطعام فالتهمه بعنف .

وجلس فوق الرمال تحت قمر أوشك أن يكتمل . ونظر من

بعيد الى النور المنبثق من قهوة طرزان فوق الهضبة ، وتخيل

مجمع السمار والجالسين فى الحجرة . حقا له لا يحب الوحدة .

وهو بين الناس يتضخم كالعملاق ويمارس المودة والرياسة

والبطولة . وبغير ذلك لا يجد للحياة مذاقا . ولكن نور هل

عادت ، هل تعود ، هل يرجع اليها أو يرجع الى الوحدة

القاتلة ؟ ! . وقام فنفض الغبار عن بنطلونه ، ومشى نحو الغابة



ليعود من الطريق الذى يدور حول مدفن الشهيد من ناحيته الجنوبية . وعند الموقع الذى اتقض فيه على بياظة انشقت الأرض عن شبحين وثبا نحوه فجأة حتى أحاطا به من الجانبين . قال أحدهما بلهجة ريفية ممدنة :

— قف ..

وهتف الآخر :

— بطاقتك الشخصية !

وسلط الأول على وجهه نور بطارية فأحنى رأسه كأنه يحمى عينيه وصاح بعنف غير متوقع فى الوقت نفسه :

— من أئتما ؟ .. تكلم ..

دهش الرجلان للهجة الآمرة ولكنهما تبينا ملبسه على ضوء البطارية وإذا بالأول يقول :

— لا مؤاخذة يا حضرة الضابط ، لم تتبين شخصيتك فى ظل الغابة !

فصاح بعنف أشد :

— من أئتما ؟

هـ فقالا بعجلة ولهوجة :

— من قوة الوايلى يا فندم .

ومع أن البطارية انطفأت الا أنه قرأ فى وجه الآخر شيئاً رابه . رآه يتمن فيه بقوة . كأن شكاً داخله . وخشى أن يفلت الزمام منه فبقوة تصميم لا تعرف التردد وجه قبضتيه معا الى

بطنى الرجلين فترنحا . وقبل أن يتمالكا نفسيهما انهما عليهما
لكما فى مواطن الضعف كالفك وأعلى البطن حتى سقطا مغشيا
عليهما ، ثم انطلق فى طريقه بأقصى سرعة . ولم يتجه نحو شارع
نجم الدين حتى وقف عند منعطفه مليا ليتأكد من أن أحدا
لا يتبعه . ورجع الى البيت فوجده خاليا كما تركه ، ووجد
الوحشة والضيق والقلق فى انتظاره . وخلع الجاكته وارتقى على
الكنبة فى الظلام . وتساءل بصوت مسموع كئيب :

— نور ، أين أنت ؟

محال أن تكون بخير . هل قبض البوليس عليها ؟ ، هل
اعتدى عليها بعض الأوغاد ؟ . هى ليست على أى حال بخير .
هو يؤمن بذلك بقلبه وغريزته . لن يرى نور مرة أخرى .
وخنقه اليأس خنقا ، ودهمه حزن شديد الضراوة . لا لأنه
سيفقد عما قريب مخبأه الآمن ولكن لأنه فقد قلبا وعطفا وأنسا
وتمثلت لعينيه فى الظلمة بإبتسامتها ودعابتها وحبها وتعاستها
فانصر قلبه . ودلت حاله على أنها كانت أشد تغلغلا فى نفسه
مما تصور . وأنها كانت جزءا لا يصح أن يتجزأ من حياته
الممزقة المترنحة فوق الهاوية . وأغمض عينيه فى الظلام واعتوف
اعترافا صامتا بأنه يحبها ، وأنه لا يتردد فى بذل النفس
ليستردها سالمة . وثفخ غاضبا وهو يتساءل :

— هل تهتز شعرة فى الوجود لضياعتها ؟

كلا . حتى نظرة الرثاء غير المجدية لن تحظى بها . امرأة بلا

نصير في خضم من الأمواج اللامبالية أو المعادية . وسناء
— كذلك — قد تجد نفسها يوما بلا قلب يهتم بها . وتقبض
قلبه في خوف وغضب فتناول مسدسه ثم سدده في الظلام كأنما
يحذر المجهول . وتأوه من الأعماق في يأس . وهكذا طال به
هذيان الصمت والظلام حتى صرعه النوم في آخر الليل .

وفتح عينيه في ضوء النهار وسرعان ما تنبه الى أنه استيقظ
على يد تطرق الباب . نهض منزعجا ، ثم سار على أطراف
أصابعه الى مدخل الشقة والطرق متواصل . وارتفع صوت
امرأة مناديا : « يا ست نور .. يا ست نور ! » من المرأة وماذا
تريد ؟ . ورجع الى الحجرة ثم عاد بمسدسه على سبيل الحيلة .
واذا بصوت رجل يقول : « لعلها خرجت » فقالت المرأة : « في
مثل هذا الوقت تكون في البيت ، ولم تتأخر من قبل في دفع
الايجار » . اذن فهي صاحبة البيت . وطرقت المرأة الباب طرقة
غاضبة ثم قالت : « اليوم الخامس من الشهر ولن أصبر أكثر من
ذلك ! » . وابتعدت هي والرجل وهما يتبادلان التعليق في
لهجة وعيد .

وآمن سعيد بأن الحوادث تطارده كالبوليس . لن تصبر
المرأة طويلا على الانتظار ، وسوف تفتح الشقة بوسيلة أو
بأخرى ، وبخير ما يفعل هو أن يغادر الشقة في أقرب فرصة
ممكنة ..

ولكن أين المفر ؟

الفصل السابع عشر



عادت صاحبة البيت الى طرق الباب عند العصر ثم عند المساء ، ورجعت آخر مرة وهى تقول : « لا لا يا ست نور ، لا بد لكل شىء من آخر » .

وغادر البيت متسللا عند منتصف الليل . وبالرغم من أنه فقد الثقة فى كل شىء الا أنه مشى مشية طبيعية جدا ومتمهلة

كأنما يتريض . وخيل اليه أكثر من مرة أن المارة والمتسكعين ليسوا إلا مخبرين فتوثب لدخول آخر معركة يائسة . ولم يشك في أن البوليس يحتل منطقة طرزان كلها بعد معركة أمس فمضى نحو طريق الجبل ، وكان الجوع ينهش بطنه ، ووجد نفسه يفكر في مسكن الشيخ على الجنيدى كسرفاً مؤقت حتى يتسع له مجال التفكير والمغامرة . وتسلسل الى فناء البيت الصامت ، وعند ذلك فحسب تنبه الى أنه نسي بدلته الرسمية — بدلة الضابط — في حجرة الجلوس بيت نور فغضب لذلك أيما غضب ، ولكنه واصل سيره الى حجرة الشيخ . ورأى الشيخ على ضوء المصباح متربعا في ركن المصلى غارقا في نجوى هامة فذهب الى جدار الحجرة حيث ترك كتبه وجلس في اعياء . واستمر الشيخ في نجواه فقال سعيد :

— مساء الخير يا مولاي ..

فرفع الشيخ يده الى رأسه ردا على تحيته دون أن يقطع نجواه ، فقال سعيد :

— مولاي ، أنا جائع ..

فخيل اليه أنه قطع النجوى ورنا اليه من عينين غائبتين ثم أوماً بذقنه الى خوان قريب فرأى سعيد فوقه تينا وخبزا فنهض اليه دون تردد ثم التهمه بنهم حتى أثنى عليه ، ووقف ينظر الى الشيخ بعينين تنطقان بعدم شبعه ، فسأله :

— أليس معك تقود ؟

— بلى ..

— اذهب واشتر شيئا تأكله .
فعاد الى مجلسه صامتا ، وجعل الشيخ يتأمله مليا ، ثم
سأله :

— متى يا ترى تستقر ؟
— ليس على سطح هذه الأرض ..
— لذلك فأنت جائع رغم تقودك ..
— ليكن ..
— أما أنا فكنت أردد شعرا عن الأحران ولكن بقلب
مبتهج ...

— أنت شيخ سعيد ..
ثم بغضب :
— هرب الأوغاد ، كيف بعد ذلك أستقر ؟ !
— كم عددهم ؟
— ثلاثة ..

— طوبى للدنيا اذا اقتصر أوغادها على ثلاثة .
— هم كثيرون ولكن غرمائي منهم ثلاثة ..
— اذن لم يهرب أحد ..
— لست مسئولا عن الدنيا ..

— أنت مسئول عن الدنيا والآخرة !
ونفخ لنفاد صبره فقال الشيخ :
— الصبر مقدس تقديس به الأشياء ..

فقال سعيد بغم :
 — بل المجرمون ينجون ويسقط الأبرياء ..
 فتساءل الشيخ وهو يتنهد :
 — متى نظفر بسكون القلب تحت جريان الحكم ؟
 فأجاب سعيد :
 — عندما يكون الحكم عادلا .
 — هو عادل أبدا ..
 فحرك سعيد رأسه في غيظ مغمغما :
 — هرب الأوغاد وأسفاه ..
 فابتسم الشيخ ولم ينبس ، فقال سعيد بنبرة جديدة يمهّد
 بها لتغيير مجرى الحديث :
 — سأنام ووجهي الى الجدار ، لا أود أن يراني أحد من
 يزورونك ، انى ألجأ اليك فاحفظنى ..
 فقال الشيخ برحمة :
 — التوكل ترك الايواء الا الى الله ..
 فسأله باشفاق :
 — هل تتخلى عني ؟
 — معاذ الله ..
 فتساءل في يأس :
 — هل في وسعك بكل ما أوتيت من فضل أن تنفذني ؟
 — أنت تنقذ نفسك ان شئت ..
 فهمس سعيد لنفسه :

— أنا أقتل الآخرين ..

ثم سأله بصوت مرتفع :

— هل تستطيع أن تقيم ظل شيء معوج ؟

فقال الشيخ برقة :

— أنا لا أهتم بالظلال !

وساد الصمت فدبت الحياة خارج الكوة التي يسيل منها القمر . ورتل الشيخ بصوت هامس « ان هي الا فتنتك » وقال سعيد ان الشيخ سيجد دائما ما يقوله . وبيتك يا مولاي غير مأمون وان تكن أنت الأمان نفسه . وعلى أن أهرب مهما كلفني الأمر . وأما أنت يا نور فلتحفظك الصدفة ان أعوزك العدل والرحمة . ولكن كيف نسيت البدلة الرسمية ؟ . لففتها مصمما على أخذها معك فكيف نسيتها في آخر لحظة ؟ . حقا فقدت جميل مزايك بالسهاد والوحدة والظلمة والقلق . وقد يجدون في البدلة أول خيط يوصل اليك . وقد تشمها الكلاب فتنتشر في جهات الأرض الأربع كي تكتمل المأساة التي يتسلى بها قراء الصحف . واذا بالشيخ يقول فيما يشبه الأسى :

— سألتك أن ترفع وجهك الى السماء وها أنت تنذر بأنك ستدفنه في الجدار !

فحدجه بحزن هاتفا :

— وحديثي عن الأوغاد ألا تذكره ؟

فقال بنبرة دسمة :

— واذكر ربك اذا نسيت .

فغض بصره في كرب ثم ساءل نفسه كيف نسي البدلة ،
وعاودته أفكار السوء . أما الشيخ فقال وكأنما يخاطب آخر :

— سئل « أرأيت رقي نسترقبها ودواء تتداوى به هل يرد
من قدر الله ؟ » فأجاب « انه من قدر الله ! » .

— ماذا تعنى ؟

فقال وهو يتأوه آسفا :

— لم يكن أبوك ليخلق عليه قولى أبدا !

فقال سعيد بشيء من الحدة :

— من المؤسف أننى لم أجد عندك طعاما كافيا ، كما هو
مؤسف أننى نسيت البدلة ، كذلك عطفى يتعذر عليه فهمك ،
وسأدفن وجهى في الجدار ، ولكنى واثق من أننى على حق ..
فقال باسماء في رثاء :

— قال سيدى « انى لأنظر في المرأة كل يوم مرارا مخافة
أن يكون قد اسود وجهى » !

— أنت ؟ !

— بل سيدى نفسه !

فتساءل ساخرا :

— فكيف ينظر الأوغاد في المرأة كل ساعة ؟ !

وحنى الشيخ رأسه وهو يرتل « ان هى الا فتنتك » .
وأغمض سعيد عينيه وهو يقول لنفسه « انى متعب حقا ولكن
لنى يهدأ لى بال حتى أجيء بالبدلة » .

الفصل الثامن عشر

وأذاب الارهاق ارادته فنام رغم تصميمه على احضار
البدلة . واستيقظ قبيل الظهيرة فكان عليه أن ينتظر الليل . وفي
أثناء ذلك رسم خطة للهرب ، ولكن كان عليه أيضا أن ينتظر
حيناً من الدهر حتى يغمض البوليس عينه عن منطقة طرزان
وهو قطب الخطة . وبعد منتصف الليل ذهب الى شارع نجم
الدين فرأى ضوءاً في نافذة الشقة . حلق في النافذة مذهولاً
حتى تأكد مما يرى . ارتفعت دقات قلبه حتى أصمت أذنيه .
واكتسحته فرحة فاقتلعت من دنيا الكابوس . نور في الشقة .
أين كانت ؟ ، سيعرف أسباب غيابها ولكنها عادت . هي الآن
تتساءل عن مكانه وتعاني لفحات الجحيم الذي احترق فيه .
ان قلبه يؤكد له عودتها ، قلبه الذي لا يكذبه قط . وهموم
التشرد ستتلاشى الى حين وربما الى الأبد وسيحتويها بين
ذراعيه بكل قوة ويعترف لها من قلب ممزق بالحب الأبدي .
وتسلل الى داخل البيت نشوان بالسعادة والنصر ، ورقى في
السلم وهو يحلم بدرجات من النصر لا حد لها ولا حصر .
سيهرب ويستقر طويلاً ثم يعود يوماً لينكل بالأوغاد . واقترب
من باب الشقة وهو يلهث . أحبك يا نور ، بكل قلبي أحبك ،

وأضعاف ما أعطيتني من حب ، سأدفن في صدرك ضياعي
وخيانة الأوغاد وجفول ابنتي . وطرق الباب . وفتح الباب عن
وجه رجل ! . رجل قصير في ملابسه الداخلية . تبخر سعيد فلم
يبق منه الا رماد . وحملق فيه الرجل بدهشة وهو يتساءل :
— من حضرتك ؟

وسرعان ما حلت محل النظرة المتسائلة نظرة شك وارتياح .
أيقن سعيد أن الرجل سيعرفه . ودون تردد سد فاه يسراه
ولكمه بالأخرى في بطنه . وتلقاه بين يديه فأنامه على العتبة كيلا
يحدث صوتا . وفكر في اقتحام الشقة تنقيبا عن البدلة ولكنه
لم يكن متأكدا من خلوها . واذا بصوت امرأة يتساءل من
الداخل :

— من الطارق يا معلم ؟

وتحول عن موقفه يائسا ، فقطع السلم وثبا حتى بلغ
الطريق . وشق طريق المصانع الى طريق الجبل . وهناك شك في
أشباح تتحرك فلبد عند أسفل جدار وانطرح على وجهه . ولم
يستأنف سيره الحذر حتى خلا الطريق من أى أثر لانسان .
وتسلل مرة أخرى الى مسكن الشيخ قبيل الفجر . وكان الشيخ
في ركنه يترقب الأذان . وخلع بدلته وتمدد فوق الحصيرة دافئا
وجهه في الجدار رغم يأسه من نوم قريب . وقال له الشيخ :
— نم فالنوم عبادة لأمثالك ..

فلم ينبس ، ونادى الشيخ بصوت خافت « الله » . وظل

مسهدا حتى أذن الفجر ، ثم ظل مسهدا حتى ترامى صوت يباع اللبن . ولم يدرك أنه نام الا عندما رقد فوق صدره كابوس . ولما فتح عينيه رأى ضوء المصباح الوانى منتشرا فى الحجرة كالضباب . اذن لهم ينم الا ساعة على الأكثر . والتفت نحو فراش الشيخ فوجده خاليا ، ورأى على كتب من كتبه المكومة شواء وتينا وقلة ماء . شكرا لك يا مولاي ولكن متى جئت بهذا الطعام ؟ . وسمع خارج الحجرة أصواتا فعجب لذلك ، وزحف على أربع نحو الباب الموارب فنظر من زيقه فرأى لدهشته أهل الذكر يفترشون الحصر ، كما رأى عاملا يوقد الكلوب فى أعلى الباب الخارجى . رباه انه المغيب لا السحر كما توهم . واذن فقد نام طيلة النهار وهو لا يدري . يا له من نوم عميق حقا . وأجل التفكير فى أى شىء حتى يأكل فالتهم الطعام وشرب حتى روى . وارتدى البدلة ثم أسسند ظهره الى كتبه ومد ساقيه الى الأمام . وسرعان ما ازدحمت رأسه بالبدلة الرسمية المنسية والرجل الذى فتح له باب الشقة وسناء ونور ورءوف ونبوية وعليش والمخبرين وطرزان والسيارة التى سيخترق بها الحصار ، عصفت جميعا برأسه . ليس الصبر فى صالحك ولا التردد . وبأى ثمن يجب أن تتصل بطرزان الليلة ولو ذهبت اليه زحفا فوق الرمال . غدا سينطح البوليس الصخر ويركب الرعد الأوغاد . وسمع فى الخارج يدا تصفق واذا بأصوات الرجال تسكت ، وجلال الصمت يسود . وردد

الشيخ على الجنيدى ثلاثا « الله » فردد الآخرون النداء فى نعمة
رسمت فى مخيلته حركة الذكر الراقصة . الله .. الله .. الله ،
وازدادت النعمة سرعة وارتفاعا ثم اختزالا مع زيادة فى السرعة
كصوت قطار منطلق ، وتواصلت دون انقطاع فترة غير قصيرة ،
ثم أخذ يداخلها الوهن ويبدأ ثم التراخى فى الايقاع والبطء
ثم ترنحت وتهافت فى الصمت . وعند ذاك علا صوت رخيم
مترنما :

واحسرتى ، ضاع الزمان ، ولم أفز
منكم ، أهيل مودتى بقاء
ومتى يؤمل راحة من عثمرة
يومان ، يوم قلى ، ويوم تناء
وارتفعت التأوهات فى الأركان ، ثم ارتفع صوت آخر
يترنم :

وكفى غراما أن أبيت مثيما
شوقى أمامى والقضاء ورأى
واتشرت التأوهات مرة أخرى . وتتابع الغناء حتى صفقت
اليد داعية الى الذكر من جديد . فتردد اسم الله بغير انقطاع .
واستسلم للسماع ، وزحف الليل . ثم ركضت الذكريات
كالمسحب . تمايل غم مهران الأب مع الذاكرين وجلس الغلام
عند النخلة يراقب المشهد بعينين مشدوهتين . والبتقت من
الظلمات أخيلة عن الخلود فى كنف الرحمن . وومضت آمال

باهرة نافضة عنها تراب النسيان . وتحت النخلة الوحيدة بشارع
المديرية ندت همسات ندية كأفراح الفجر . وتكلمت سناء
الصغيرة في حضنه بلغة فطرية ساحرة . ثم هبت أنفاس متقدة
من أعماق الجحيم توالى بعدها الضربات . وامتدت أنغام
المنشد وآهات الذاكرين . ومتى يؤمل راحة ، وضاع الزمان
ولم أفز ، والقضاء ورائى . وهذا المسدس المتوثب فى جيبى له
شأن . لا بد أن ينتصر على الغدر والفساد . ولأول مرة سيطارد
اللعن الكلاب .

وفرق صوت مزعج تحت الكوة وحاورته أصوات :

— يا خير ، الحى كله محاصر ..

— ولا أيام الحرب !

— سعيد مهران ..

انكمش فى تكهرب ويده تلتصق بمسدسه ، وتحفرت فيه
كل جارحة . وأجال فى المكان نظرة زائغة . مكان مزدحم وفيه
اغراء للمخبرين . يجب ألا تسبقنى الحوادث . انهم يتفحصون
الآن البدلة وهناك الكلاب . وأنت هنا عار معرض للأبصار .
وان يكن طريق الصحراء ملغما فعلى خطوات يقع وادى الموت .
وسأقاتل حتى الموت . ونهض مصمما مقتربا من الباب . الجميع
غارقون فى الذكر والممر الى الباب خال . ومرق من الباب
ومضى نحو الطريق . ومال يسرة وهو يسير فى هدوء مصطنع
ثم انحدر فى طريق المقابر . الليل راسخ ولكن القمر لم يطلع
والظلام جدار أسود يسد الطريق . وغاص وسط القبور فى تيه

من الفناء لا يهتدى بشيء . وتخبط في سيره لا يدري ان كان
يتقدم أم يتأخر . ومع أن بارقة أمل واحدة لم تومض الا أنه
طفح بحيوية خارقة .. وترامت اليه مع النسيم الدافئ ضوءا .
وثمنى أن يختفى في قبر ولكسبه لم يكف عن السير . وكان
يخشى الكلاب ولكن لم يكن في وسعه حيلة ولا في طاقته
أن يقف . وبعد مسير دقائق وجد نفسه في الصف الأخير من
القبور ورأى أمامه منظرا غير غريب . انه مدخل القرافة
الشمالي فيما يتصل بشارع نجم الدين . أجل هذا هو شارع
نجم الدين ، وهذا هو البيت الوحيد القائم فيه ، وهذه هي
الشقة ، وها هي النافذة مفتوحة ينبعث منها نور . وأحد البصر
فرأى في النافذة امرأة ، ها هو رأسها مطموس المعالم . ولكنه
يذكره بنور . وخفق قلبه خفقة مزلزلة . هل عادت نور ؟ ، أو
أن عينيه تخدعانه كما خدعه قلبه بالأمس ؟ ! بت لعبة في أيدي
الخدع وهذا نذير بالنهاية . وان تكن هي نور فما يريد الا أن
ترعى سناء اذا حم القضاء . وقرر أن يناديهما على ما في ذلك من
مخاطرة . وقبل أن يخرج الصوت من حلقه ترامى من بعد نباح
كلاب ، ثم تتابع في الصمت كالطلقات المتفجرة . وتراجع في
فزع . وأوغل بين القبور والنباح يشتد وألصق ظهره بقبر ثم
أشهر مسدسه وهو يحملق في الظلام موقنا بدنو الأجل . أخيرا
جاءت الكلاب واتقطع الأمل . ونجا الأوغاد ولو الى حين .
وقالت حياته كلمتها الأخيرة بأنها عبث . ومن المستحيل تحديد
مصدر النباح الذي ينطلق مع الهواء في كل موقع . ولا أمل في

الهروب من الظلام بالجري في الظلام . نجا الأوغاد وحياتك
عبث . واقتربت الضوضاء والنباح وقريبا تتردد أنفاس الحقد
والتشفي على وجهك . وحرك مسدسه في غضب والنباح يشند
ويقترب . وإذا بضوء ساطع باهر يغمر المنطقة في حركة دائرة
فأغمض عينيه وارتمى أسفل القبر . وهتف صوت في ظفر :

— سلم ، لا فائدة من المقاومة ..

وارتجت الأرض بوقع الأقدام الثقيلة المطوقة وانتشر الضوء
كالشمس :

— سلم يا سعيد ..

اشتد التصاقه بالقبر متأهبا لاطلاق النار ودار رأسه في كل
مكان . وصاح صوت وقور :

— سلم ، وأعدك بأنك ستعامل بإنسانية ..

كانسانية رعوف ونبوية وعليش والكلاب !

— أنت محاصر من جميع الجهات ، القرافة كلها محاصرة ،
فكر جيدا وسلم نفسك ..

واطمأن الى أن تناثر القبور يحول دون رؤيته فلم يتحرك
وصمم على الموت . وتساءل صوت في حزم :

— ألا ترى أنه لا فائدة من المقاومة ؟

وشعر باقتراب الصوت عما قبل فصاح مكرها :

— الويل لمن يقترب ..

— حسن ، ماذا تنوى ؟ ، اختر بين الموت وبين الوقوف

أمام العدالة .



فصرخ بازدرء :

— العدالة !

— أنت عنيد ، أمامك دقيقة واحدة ..

ورأت عيناه المعذبتان بالخوف شبح الموت يشق الظلام .
وجفلت سناء بلا أمل . وأحس حركة غادرة فاستشاط غضبا
وأطلق النار . وانهال الرصاص حوله فخرق أزيه أذنيه ،
وتطاير نثار القبور . وأطلق الرصاص مرة أخرى وقد ذهل عن
كل شيء فانصب الرصاص كالطر . وفي جنون صرخ :

— يا كلاب !

وواصل إطلاق النار في جميع الجهات .

واذا بالضوء الصارخ ينطفئ بغتة فيسود الظلام . واذا
بالرصاص يسكت فيسود الصمت . وكف عن إطلاق النار بلا
ارادة . وتغلغل الصمت في الدنيا جميعا . وحلت بالعالم حال
من الغرابة المذهلة . وتساءل عن ... ولكن سرعان ما تلاشى
التساؤل وموضوعه على السواء وبلا أدنى أمل . وظن أنهم
تراجعوا وذابوا في الليل . وأنه لا بد قد انتصر . وتكاثف الظلام
فلم يعد يرى شيئا ولا أشباح القبور . لا شيء يريد أن يثرى .
وغاص في الأعماق بلا نهاية . ولم يعرف لنفسه وضعاً ولا موضعاً
ولا غاية . وجاهد بكل قوة ليسيطر على شيء ما ، لئيل مقاومة
أخيرة . ليظفر عبثا بذكرى مستعصية . وأخيرا لم يجد بدا
من الاستسلام فاستسلم بلا مبالاة .. بلا مبالاة ..

مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

الطبعة الاولى

مصر القديمة	(مترجم عن الانجليزية)	١٩٣٢		
همس الجنون	مجموعة أقاصيص	١٩٣٨	الطبعة الرابعة	١٩٦٣
عبث الاقدار	قصة تاريخية	١٩٣٩	»	١٩٦٣
رادوييس	»	١٩٤٣	» الخامسة	١٩٦٤
كفاح طيبة	»	١٩٤٤	»	١٩٦٤
القاهرة الجديدة	»	١٩٤٥	»	١٩٦٢
خان الخليلي		١٩٤٦	» السادسة	١٩٦٥
زقاق المدق		١٩٤٧	» السادسة	١٩٦٥
السراب		١٩٤٨	» الرابعة	١٩٦٣
بداية ونهاية		١٩٤٩	» السادسة	١٩٦٥
بين القصرين		١٩٥٦	» الخامسة	١٩٦٤
قصر الشوق		١٩٥٧	»	١٩٦٢
السنكرية		١٩٥٧	»	١٩٦٤
الاصم والكلاب		١٩٦١	» الثالثة	١٩٦٤
السمان والحريف		١٩٦٢	»	١٩٦٥
دنيس الله	قصص قصيرة	١٩٦٣		
الطريق	رواية	١٩٦٤	» الثانية	١٩٦٥
بيت سيء السمعة	قصص قصيرة	١٩٦٥		
ثرثرة فوق النيل	»	١٩٦٥		
الشحاذ	رواية	١٩٦٦		

تحت الطبع :

رواية

»

اولاد حارتنا

ميرامار

Bibliotheca Alexandrina



0655602

دار مصر للطباعة